بوجد بعض الصفحات
الساقطة من اصل الرواية

مباحث
فى علوم القرآن

إعداد
الدكتورة / عفاف على النجار
الأستاذ بقسم التفسير وعلوم القرآن
كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنات
جامعة الأزهر - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُـنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلا أُولُوا الأَلْبَابِ ﴾

سورة آل عمران الآية ٧ .

المبحث الأول

إعجاز القرآن

إن موضوع إعجاز القرآن من الموضوعات الهامة والمقاصد الشريفة وهو من الأغراض التى تناضلت لها ساهم الأفهام والعقول وهو من الغايات التى تسابقت إليها جياد الهمم فرجعت دونها حسرى " إذ أن القرآن كلام الله المعجز فى أسلوبه ونظمه فى علومه وحكمه وفى تأثير هدايته وفى كشفه الحجب عن الغيوب الماضية والمستقبلة وفى كل باب من هذه الأبواب للإعجاز فصول وفى كل فصل منها فروع ترجع إلى أصول ، وقد تحدى سيدنا محمد ﷺ ذلك النبى ﷺ ذلك النبى العربى الأمى ـ العرب بإعجازه وحكى لهم عن ربه القطع بعجزهم عن الإتيان بسورة من مثله فظهر عجزهم على شدة حرص بلغاؤهم على إبطال دعوته واجتثاث نيته ونقل جميع المسلمين هذا التحدى إلى جميع الأمم فظهر عجزها كذلك " [١] ٠

ولقد تكلم فى إعجاز القرآن كثير من العلماء على اختلاف مجالاتهم وتخصصاتهم ، تكلم فيه المفسرون والمتكلمون والفقهاء ، تكلم فيه البلغاء والأدباء وكتب فيه الباحثون والمؤلفون كتبا خاصة به مما يطول بذكره المقام ويمتد به المقال ٠

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧ ٠

هذا ولما كان غرضنا من هذا الكتاب لزوم الإختصار والإيجاز والجنوح عن التطويل والإطناب ــ كان علينا أن نقصر الكتابة فــى هذا المبحث على ستة جوانب : الأول فى معنى إعجــاز القــرآن والثانى : فى الدلالة على كون القرآن هو المعجزة ، الثالث : فــى القدر المعجز من القرآن ، الرابع : فى أقوال العلمــاء فــى منشــأ إعجاز القرآن ، الخامس : فى معارضة القرآن ، السادس فى طائفه من وجوه إعجاز القرآن وهاك البيان والتفصيل .

أولا : معنى إعجاز القرآن :

إعجاز القرآن مكون من كلمتين : إعجاز وقرآن وهو مركــب إضافى مثل إكرام زيد ضيفه ، ومعناه بحسب أصل اللغة : إثبــات القرآن عجز الثقلين مما تحداهم به عن الإتيان بمثله فهو من إضافة المصدر لفاعله والمفعول محذوف والتقدير : إعجاز القرآن الثقليــن عن الإتيان بما تحداهم به ، وهذا التعجيز فى الحقيقة ليس مقصــودا لذاته وإنما المقصود لازمه وهو إظهار أن هذا الكتاب حق فإذا ثبت الإعجاز ظهرت قدرة المعجز ، والمراد بالإعجاز هنــا : إظــهار صدق النبى ﷺ فى دعوى الرسالة بإظهار عجــز العــرب عــن معارضته فى معجزته الخالدة ــ وهى القرآن ــ وعجــز الأجيــال بعدهم وكذلك الشأن فى كل معجزة ليس المقصود بها تعجيز الخلــق لذات التعجيز ولكن للازمه المشار إليه .

هذا وإن الكلام عن إعجاز القرآن يقتضينا أن نبين معنى المعجزة فنقول : المعجزة : أمر خارق للعادة مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة ، وهى إما حسية وإما عقلية ، وأكثر معجزات بنى اسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم ، وأعظم معجزات هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر ٠ كما قال ﷺ : " ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيت وحيا أوحاه الله إلىَّ ، فأرجوا أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة [١] قيل إن معناه : إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخارقة للعادة فى أسلوبه وبلاغته وإخباره بالمغيبات ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شئ مما أخبر به انه سيكون دليل على صحة دعواه – وقيل : إن المعجزات الماضية كانت حية تشاهد بالأبصار – كناقة صالح ، وعصى موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من يتبعها لأجلها أكثر ، لأن الذى يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده والذى يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمر أمر هذه المعجزة إلى أن تقوم الساعة ٠

---

(١) أخرجه البخارى كتب فضائل القرآن ٠ باب كيف نزل الوحى وأول ما نزل ؟ ١٠ / ٣٨١ – ٣٨٢ فتح البارى ٠

ثانيا : الدلالة على كون القرآن هو المعجزة :

أيد الله تبارك وتعالى نبيه محمداً ﷺ بمجزات كثيرة ــ أعظمها وأبقاها على الزمن " القرآن الكريم " فنبوته ﷺ مبنية على المعجزة الخالدة ، وإنما كان بناء نبوته ﷺ على معجزة القرآن لأن معجزاته الأخرى قامت فى أوقات خاصة وأحوال خاصة لأشخاص خاصة نقل بعضها متواترا ونقل بعضها عن طريق الآحاد ــ أما القرآن فهو المعجزة العامة للثقلين الباقية بقاء العصرين ، ولزوم الحجة بها من أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد سواء ، ومن ثم يعلم بعجز العصر الأول عن الإتيان بمثله عجز العصور التالية له عن الإتيان بمثله أيضاً ــ ودليلنا على أن الله تعالى حين بعث نبيه محمداً ﷺ جعل معجزته القرآن وبنى أمر نبوته عليها ، آيات كثيرة نذكر طائفة منها للتنبيه بها على ما سواها فمن هذه الآيات قوله تعالى ﴿ **بسم الله الرحمن الرحيم الر كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد** ﴾ (١) وأخبر سبحانه بأنه أنزل كتابه على رسوله ﷺ ليقع الإهتداء به ولا يكون كذلك إلا إذا كان حجة ، ولا يكون حجة إلا إذا كان معجزة ــ وهكذا فما من سورة افتتحت بحروف التهجى إلا وقد شاع فيها مثل هذا الاستدلال .

---

(١) سورة إبراهيم الآية ١ .

ومن الآيات الدالة على كون القرآن هو المعجزة قول الله تعالى **﴿ وإن أحد من المشركين إستجارك فأجره حتى يسمع كـلام الله - الآية ﴾** [1] فلولا سماعه إياه حجة عليه لما وقف أمره على سـماعه ، ولا يكون حجة إلا وهو معجزة ــ ومن هذه الآيات أيضـا قولـه تعالى **﴿ وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبيـن ﴾** [2] فلـولا أن كونه بهذا اللسان حجة لما عقب كلامه الأول به ولما كـان لـهذا التنصيص فائدة ، ولا يكون حجة إلا ما هو معجزة ٠

ومما يدل على كون القرآن هو معجزة النبى ﷺ قوله تعالـى: **﴿ وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيـات عنـد الله وإنما أنا نذير مبين * أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتـاب يتلـى عليهم ــ الآيتان ﴾** [3] فأبان سبحانه أن القرآن آية من آياته وعلـم من أعلامه وأن ذلك كاف فى الدلالة وقائم مقام معجـزات غـيره وآيات من سبقه من الأنبياء عليهم السلام إلى غير ذلك من الآيـات الكثيرة المبثوثة فى كتاب الله الناطقة بكون القرآن هـو المعجـزة الكبرى للنبى ﷺ ٠

---

(١) سورة التوبة الآية ٦ ٠

(٢) سورة الشعراء الآيات ١٩٢ ــ ١٩٥ ٠

(٣) سورة العنكبوت الآيتان ٥٠ ، ٥١ ٠

ثالثا : القدر المعجز من القرآن :

وفى هذا الجانب يبرز أمامنا سؤال يقول :

ما هو القدر المعجز من القرآن ؟

وبعبارة أخرى بأى قدر من القرآن يتحقق الإعجاز ؟

وفى الجواب عن هذا السؤال نقول : للعلماء فى هذه المسألة أربعة أقوال :

أحدها : يرى جماعة أن الإعجاز يتعلق بالقرآن كله لا ببعضه لا بسورة برأسها ولا بعدد محدود من السور والآيات ٠

ثانيها : يرى آخرون أن قليله وكثيره سواء فى الإعجاز دون التقيد بسورة منه ٠

ثالثها : وهو قول جمهور العلماء أن الإعجاز يتعلق بسورة كاملة ولو كانت أقصر سورة فى القرآن ٠

رابعها : يرى البعض أن الإعجاز ليس فى قدر معين من السور أو الآيات وأنه فى جرس حروفه ووقع كلماته ودقة معانيه وصدق أخباره وحسب أى قدر من القرآن أنه كلام رب العالمين ٠٠

وأيا ما كان القدر المعجز من القرآن فإن للباحث المدقق الذى ينشد الحق ويبتغيه إذا نظر إلى أى ناحية من نواحى القرآن ـ إلى ناحية أسلوبه أو ناحية علومه أو ناحية الأثر الذى أحدثه فى العالم وغير به وجه التاريخ ، أو إلى تلك النواحى مجتمعة يلمس الإعجاز فيه حقيقة ناطقة بذلك إلى يوم الدين ٠

ودليل ذلك : أن القرآن قد طاول العرب وتنازل لهم عن التحدى بجميع القرآن الكريم إلى التحدى بعشر سور مثله ثم إلى التحدى بسورة واحدة مثله وهم على رغم هذه المطاولة ينتقلون من عجز إلى عجز ، ومن هزيمة إلى هزيمة وهو فى كل مرة من مرات هذا التحدى وهذه المطاولة ، ينتقل من فوز إلى فوز ويخرج من نصر إلى نصر .

ولنتصور انه قال لهم فى سورة الطور أول ما تحداهم ﴿ **أم يقولون تقوله * بل لا يؤمنون فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين** ﴾ (١) .

فلما انقطعوا مد لهم فى الحبل ، وقال فى سورة هود ﴿ **أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل انتم مسلمون** ﴾ (٢).

فلما عجزوا هذه المرة أيضا طاولهم مرة ثالثة وأرخى لهم الحبل إلى آخره وقال فى سورة البقرة ﴿ **وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** ﴾ (٣) .

---

(١) سورة الطور الآيتان ٣٣ ، ٣٤ .

(٢) سورة هود الآيتان ١٣ ، ١٤ .

(٣) سورة البقرة الآيتان ٢٣ ، ٢٤ .

فكان عجزهم بعد ذلك أشنع وأبشع ، وسجل الله عليهم الهزيمة أبد الدهر ، فلم يفعلوا ودحضت حجتهم ، وافتضح أمرهم ، وظهر أمر الله وهم كارهون .

فتحدى العرب بالإتيان ولو بمثل سورة واحدة من سور القرآن صادق أن يكون بأطول سورة أو بأقصر سورة كان .

وبهذا يتبين لنا أن القدر المعجز من القرآن هو ما يقدر بأقصر سورة منه ، وأن القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للنبى ﷺ وهو المعجزة الباقية بقاء الزمن وقد تحدى بها الرسول معانديه تحديا واضحا صريحا لا لبس فيه ولا غموض ــ نعم :

لقد تحدى رسول الله ﷺ بالقرآن العرب ــ فأعجز أساطين الفصحاء ، وأخرص ألسنة فحول البيان من أهل صناعة اللسان .

وإذا كان ملوك الفصاحة وأرباب البلاغة من العرب قد عجزوا عن معارضة القرآن فغيرهم أشد عجزا وأفحش عيا .

وها قد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن إلى عصرنا هذا قرون متعددة ، وأدوار مختلفة بين علو ونزول ، واتساع وإنقباض ، وحركة وجمود ، وحضارة وبداوة ــ والقرآن فى كل هذه الأدوار واقف فى عليائه يطل على الجميع من سمائه وهو يشع نورا وهداية ، ويفيض عذوبة وجلالا ، ويسيل رقة وجزالة ، ويرق جدة وطلاوة ــ ولا يزال كما كان غضا طريا يحمل راية الإعجاز ويتحدى أمم العالم فى يقين قائلا فى صراحة

الحق وقوته ، وسلطان الإعجاز وصولته : ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** ﴾ [1][2] .

رابعا : أقوال العلماء في إعجاز القرآن :

هذه المسألة وثيقة الصلة بموضوع إعجاز القرآن ، وللعلماء فيها أقوال عديدة ومختلفة منها الصحيح ومنها الفاسد ، فهى مسألة جديرة بالبحث والدراسة لبيان الغث فيها من السمين ، والسليم من السقيم ، بيد أن المقام لا يتسع لذكر جميع الأقوال التى ذكرت فيها ومن ثم نؤثر الاقتصار على أهمها فنقول :

١ ــ ذهب جمهور العلماء والحذاق منهم إلى أن التحدى بالقرآن إنما وقع بنظمه وصحة معانيه وتوالى فصاحة ألفاظه ٠

ووجه إعجازه أن الله أحاط بكل شئ علما وأحاط بالكلام كله علما ، فهو عليم بترتيب الألفاظ والمعانى فإذا وردت لفظة ما فى ٠٠٠ موضعها علم سبحانه بإحاطته أية لفظة تصلح أن تليها ، وكذلك إذا ورد معنى فى مقام ما علم سبحانه أى معنى يصلح أن يكون إثره ٠

وهذا ما يجعل الألفاظ والمعانى فى إتساق عجيب من أول القرآن إلى نهايته ــ أما البشر فيعمهم الجهل والنسيان والذهول ، ومعلوم بالضرورة أن أحداً من البشر لا يحيط بذلك ٠

---

(١) سورة الإسراء الآية ٨٨ ٠

(٢) مناهل العرفان للزرقانى ٢٢٨/٢ ، ٢٢٩ بتصرف ٠

وبهذا جاء القرآن فى الغاية القصوى من حسن نظـم وصحـة معان وفصاحة ألفاظ " [١] .

٢ ــ **قال فخر الدين الرازى** : " وجه الإعجاز الفصاحة وغرابـة الأسلوب والسلامة من جميع العيوب " [٢] .

٣ ــ **وقال الزَّمْلُكانى** : " وجه الإعجاز راجع إلى التأليف الخـاص به لا مطلق التأليف بأن أعتدلت مفرداته تركيبا وزنه ، وعلت مركباته معنى بأن يوقع كل فن فى مرتبته العليا فـى اللفـظ والمعنى " [٣] .

٤ ــ **قال السكاكى فى المفتاح** : " إعلم ان الإعجاز القرآنى يـدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفـها ، وكالملاحة كما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصـوت ولا يدرك تحصيله لغير ذوى الفطرة السليمة إلا بإتقـان علمـى المعانى والبيان والتمرين فيهما " .

٥ ــ **وقال أبو حيان التوحيدى** : " سئل بندار الفارسى عن موضـع الإعجاز من القرآن ؟ **فقال** : هذه مسألة فيـها حَيْـف علـى المعنى وذلك أنه شبيه **بقولك** . مـا موضـع الإنسـان مـن الإنسان ؟ .

---

(١) البرهان فى علوم القرآن للزركشى ٩٧/٢ بتصرف .

(٢) نقل عن الفخر الرازى هذا النص السيوطى فى الإتقان ٨/٤ تحقيق محمد أبـو الفضل إبراهيم .

(٣) الإتقان ٨/٤ .

فليس للإنسان موضع من الإنسان ، بل متى أشرت إلى جملتـه فقد حققته ودللت على ذاته ، كذلك القرآن لشرفه لا يشار إلى شـئ منه إلا وكان ذلك المعنى آية في نفسه ، ومعجزة لمحاولـه ، وهـدى لقائله ، وليس فى طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله فى كلامه وأسراره فى كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر عنده " [1] .

٦ ـ **وقال الخطابى** : " قلت فى إعجاز القرآن وجـه ذهـل عنـه الناس وهو صنيعه فى القلوب وتأثيره فى النفوس ، فـإنك لا تسمع كلاما غير القرآن منظوما ولا منثوراً إذا قرع السـمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة فى حال ، ومن الروعة والمهابة فى حال آخر ما يخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿ **لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله - الآية** ﴾ [2] .

وقال تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثـانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم** ﴾ الآية [3] ، [4] .

٧ ـ يجمع ما تقدم وغيره من الأقوال فى منشأ إعجاز القرآن مـا ذكره ابن سراقة قال : " أختلف أهل العلم فى وجـه إعجـاز القرآن فذكروا فى ذلك وجوها كثيرة كلها حكمة وصواب وما

---

(١) المرجع السابق ١٢/٤ .

(٢) سورة الحشر ٢١ .

(٣) سورة الزمر ٢٣ .

(٤) الإتقان ١٤/٤ .

بلغوا فى وجوه إعجازه جزءاً واحداً من عشر معشاره فقال قوم : هو الإيجاز مع البلاغة .

وقال آخرون : هو البيان والفصاحة .

وقال آخرون : هو الرصف والنظم .

وقال آخرون : هو كونه خارجا عن جنس كلام العرب من النظم والنثر والخطب والشعر مع كون حروفه فى كلامهم ومعانيه فى خطابهم وألفاظه من جنس كلماتهم وهو بذاته قبيل غير قبيل كلامهم ، وجنس آخر متميز عن أجناس خطابهم ، حتى إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه ، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته ، فكان ذلك أبلغ دلالة على إعجازه .

وقال آخرون : هو كون قارئه لا يكل وسامعه لا يمل وإن تركزت عليه تلاوته ".

وقال آخرون : هو ما فيه من الإخبار عن الأمور الماضية .

وقال آخرون : هو ما فيه من علم الغيب والحكم على الأمور بالقطع .

وقال آخرون : هو كونه جامعا لعلوم يطول شرحها ويشق حصرها " [1] .

٨ ـ والذى يطمئن له القلب وتستريح له النفس ما ذهب إليه أهل التحقيق [2] من :

---

(١) المرجع السابق ١٤/٤ ، ١٥ .

(٢) أنظر البرهان فى علوم القرآن ١٠٦/٢ ـ ١٠٧ .

إن الإعجاز وقع بجميع ما سبق من الأقوال لا بكل واحد على انفراده ، فإنه جمع ذلك كله فلا معنى لنسبته إلى واحد منها بمفرده مع اشتماله على الجميع ، بل وغير ذلك مما لم يسبق ·

فمنها الروعة التى فى قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء المقربين والجاحدين ، ثم إن سامعه إن كان مؤمنا به يداخله روعة فى أول سماعه وخشية ، ثم لا يزال يجد فى قلبه هشاشة إليه ، ومحبة له ، وإن كان جاحدا وجد فيه مع تلك الروعة نفورا وعيًا ، لانقطاع مادته بحسن سمعه ·

ومنها أنه لم يزل ولا يزال غضا طريا فى أسماع السامعين ، وعلى ألسنة القارئين ·

ومنها جمعه بين صفتى الجزالة والعزوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان غالباً فى كلام البشر ، لأن الجزالة من الألفاظ التى لا توجد إلا بما يشوبها من القوة وبعض الوعورة ، والعذوبة منها ما يضادها من السلاسة والسهولة ، فمن نحا نحو الصورة الأولى فإنما يقصد الفخامة والروعة فى الأسماع ، مثل الفصحاء من الأعراب وفحول الشعراء منهم ، ومن نحا نحو الثانية قصد كون الكلام فى السماع أعذب وأشهى و ألذ ·

وبعد هذه المجموعة من الأقوال الصحيحة فى منشأ إعجاز القرآن يهمنا أن نذكر هنا أحد الأقوال الفاسدة مع بيان وجه فساده : —

(يزعم أبو اسحاق إبراهيم أحد رؤوس المعتزلة : " أن الله صرف العرب عن معارضته وسلب عقولهم وكان مقدوراً لهم ، لكن عاقهم أمر خارجى فصار كسائر المعجزات " ·

وهو قول فاسد بدليل قوله تعالى ﴿ **قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً** ﴾ (١) .

فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قوتهم ولو سلبوا القدرة لم يبق فائدة لاجتماعهم بمنزلة إجتماع الموتى وليس عجز الموتى بكبير يحتقل بذكره ــ هذا مع أن الاجتماع منعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن فكيف يكون معجزاً غيره وليس فيه صفة إعجاز ؟ بل المعجز هو الله تعالى حيث سلبهم قدرتهم على الإتيان بمثله .

وأيضا يلزم من القول بالصرفة فساد آخر وهو زوال الإعجاز بزمان زوال التحدى وخلو القرآن من الإعجاز . وفى ذلك خرق لإجماع الأمة فإنهم أجمعوا على بقاء معجزة الرسول العظمى ولا معجزة له باقية سوى القرآن وخلوه من الإعجاز يبطل كونه معجزة .

قال القاضى أبو بكر : " ومما يبطل القول بالصرفة أنه لو كانت المعارضة ممكنة ــ وإنما منع منه الصرفة ــ لم يكن الكلام معجزا ، وإنما يكون المنع هو المعجز فلا يتضمن الكلام فضلا على غيره فى نفسه ") (٢) .

---

(١) الإسراء ٨٨ .

(٢) البرهان للزركشى ٢ / ٩٤ .

خامساً : معارضة القرآن :

مما يتصل بموضوع إعجاز القرآن إتصالا وثيقاً أيضا مسألة معارضة القرآن فى عصر النبوة الشريفة • وفى ذلك نقول :

علمت أن رسول الله ﷺ قد تحدى بالقرآن أهل اللسان والبيان فعجزوا أن يأتوا بمثله أو حتى بمثل سورة من سوره • إلا أن بعض الحمقى قد أوحى إليهم شيطانهم وزينت لهم أهواؤهم فهموا بمعارضة القرآن ••

يقول الشيخ الزرقانى : " فكان ما أتوا به باسم المعارضة لا يخرج عن أن يكون محاولات مضحكة مخجلة • أخزلتهم أمام الجماهير وأضحكت الجماهير منهم • فباءوا بغضب من الله وسخط من الناس وكان مصرعهم هذا كسبا جديدا للحق وبرهانا ماديا على أن القرآن كلام الله القادر وحده لا يستطيع معارضته إنسان ولا جان • ومن ارتاب فأمامه الميدان •

يذكر التاريخ أن مسيلمة الكذاب زعم أنه أوحى إليه بكلام كالقرآن ثم طلع على الناس بكلام بهذا الهذر " إنا أعطيناك الجماهر " فصل لربك وجاهر " • وبهذا السخف " والطاحنات طحنا " و " والعاجنات عجنا " " والخابزات خبزا " وأنت خبير بأن مثل ذلك الإسفاف ليس من المعارضة فى قليل ولا كثير وأين محاكاة الببغاء من فصاحة اللسان ؟

وأين هذه الكلمات السوقية الركيكة من ألفاظ القرآن الرفيعة ومعانيه العالية ؟

وهل المعارضة إلا بالإتيان بمثل الأصل فى لغته وأسلوبه ومعانيه أو بأرقى منه ذلك ؟ " (١) .

كما يقول الرافعى ــ رحمه الله ــ عن مسيلمة الكذاب أيضاً :
" وقد زعم مسيلمة أن له قرآنا نزل عليه من السماء ويأتيه به ملك يسمى رحمن بيد أن كل ما زعمه مسيلمة ما هو إلا ضروب من الحماقة يعارض بها أوزان القرآن فى تراكيبه ويجنح فى أكثرها إلى سجع الكهان لأنه يحسب النبوة ضربا من الكهانة فيسجع كما تسجعون ، وقد مضى العرب على أن يسمعوا للكهان ويطيعوا ، ووقر ذلك فى أنفسهم واستناموا إليه ، ولم يجدوا كلام الكهان إلا سجعاً فكانت هذه بعض ما استدرجهم به مسيلمة وتأتى على أنفسهم منه ــ ومن قرآنه الذى زعمه قوله أخزاه الله :

والمبزرات زرعا ، والحاصدات حصداً والذاريات قمحا ، والطاحنات طحناً والعاجنات عجناً ، والخابزات خبزاً ، والثاردات ثرداً واللاقمات لقما أهالة وسمنا .

لقد فضلتم على أهلى الوبر ، وما سبقكم أهل المدر ريفكم فامنعوه ، والمعتر فأووه ، والباغى فناوئوه .

---

(١) مناهل العرفان ٢/٢٣٠ .

وقوله : والشاة وألوانها وأعجابها السود وألبانها والشاة السوداء واللبن الأبيض ، إنه لعجب محض ، وقد حرم •

وقوله : الفيل ما الفيل وما أدراك ما الفيل ، لــه ذنــب وبيــل وخرطوم طويل •

وهكذا كل كلامه على هذا النمط واه ســـخيف لا ينــهض ولا يتماسك بل هو مضطرب النسج مبتذل المعنـــى ــ مســتهلك مــن جهتيه •

ويفسر الرافعى بعض كلمات مسيلمة ويعلق عليها تعليقاً طريفـاً وساخراً فيقول ــ المذق : مزج اللبن بالماء ــ والمجمــع : اللبــن يشرب على التمر أو تمر يعجن باللبن •

ولعمر الله ما ندرى أكان هذا القرآن ينزل على قلب مسيلمة أو على معدته ، أو كان بين قوم جياع فتأثيره أن يسيل لعابهم " [1].

وهكذا جعل مسيلمة يتفوه بمثل هذه الأسجاع فى محاكاة القرآن ليوهم أنه يوحى إليه كما يوحى إلى نبينا محمد ﷺ كأنمـــا النبــوة والكهانة ضرب واحد •

على أنه لم يفلح فى هذه الحيلة أيضا فقد كــان كثــيرون مــن أشياعه يعرفونه بالكذب والحماقة ويقولون :

لم يكن فى تعاطيه الكهانة حاذقاً ولا فى دعوى النبوة صادقـــاً وإنما كان اتباعهم إياه كما قال قائلهم :

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى ص ١٧٤ ، ١٧٥ بتصرف •

" كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مضر " .

وهذه شهادة حق من عدو حاقد يحفظها التاريخ مدى الحياة والفضل كما قيل ــ ما شهدت به الأعداء .

كل أولئك أدلة ساطعة وبراهين قاطعة على صدق نبوة محمدﷺ ، وعلى أن القرآن الكريم من لدن حكيم خبير ولكن ليس واحد من أولئك بعنوانه المشار إليه هو موضع الإعجاز القرآنى ــ وإن كان هو فى نفسه معجزاً .

ومن أجل ذلك كله نرى أن الجدير بالذكر والتفصيل من وجوه الإعجاز ثلاثة وذلك لشمولها وانتشارها فى القرآن كله انتشار الروح فى البدن .

وهذه الوجوه هى : الإعجاز اللغوى ، والإعجاز العلمى ، والتشريعى ، وفيما يلى الشرح والبيان :

الوجه الأول
الإعجاز اللغوى

يقول الشيخ الزرقانى : " إن القرآن الكريم لم يخرج عن معهود العرب فى لغتهم العربية من حيث ذوات المفردات والجمل وقوانينها العامة بل جاء كتابا عربيا جاريا على مألوف العرب من هذه الناحية فمن حروفهم تألفت كلماته ، ومن كلماتهم تألفت تراكيبه وعلى قواعدهم العامة فى صياغة هذه المفردات وتكوين التراكيب جاء تأليفه ، لكن المعجز والمدهش والمثير لأعجب العجب أنه مع

دخوله على العرب من هذا الباب الذى عهدوه ومع مجيئــه بـهذه المفردات والتراكيب والتى توافروا على معرفتـها وتنافسـوا فـى حلبتها وبلغوا الشأو الأعلى فيها ، نقول ٠ إن القرآن مع ذلك كلـه ، قد أعجزهم بأسلوبه الفذ ومذهبه الكلامى المعجز [١] .

أجل : فقد مارس أهل العربية فنونها منذ نشأة لغتهم حتى شبت وترعرعت وأصبحت فى عنفوان شبابها عملاقا معطاء واستظهروا شعرها ونثرها ٠ وحكمها وأمثالها ، وطاوعهم البيان فى أسـاليب ساحرة ٠ حقيقة ومجازا ٠ إيجازا وإطنابا ، حديثاً ومقالا وكلما ارتفعت اللغة وتسامت وقفت على أعتاب لغة القرآن فى إعجازه اللغوى ذليلـة صاغرة ــ تنحنى أمام أسلوبه إجلالا وخشية وما عهد تاريخ العربيـة حقبة من أحقاب التاريخ ازدهرت فيـها اللغـة إلا وتطـامن أعلامـها وأساتذتها أمام البيان القرآنى اعترافا بسموه وإدراكـا لأسـراره " ولا عجب فتلك سنة الله فى آياته التى يصنعها بيديه لا يزيدك العلـم بـها والوقوف على أسرارها إلا إذعانا لعظمتها وثقة بالعجز عنها ٠

ولا كذلك صناعات الخلق فإن فضل العلم بـها يمكنـك منـها ويفتح لك الطريق إلى الزيادة عليها ٠

ومن هنا كان سحرة فرعون هم أول المؤمنين بـرب موسـى وهارون عليهما السلام " [٢] .

---

(١) مناهل العرفان ٢/١٩٩ ــ ٢٠٠ ٠

(٢) النبأ العظيم ٨١ ٠

لأنهم هم الذين عرفوا دون غيرهم من القوم بطلان ما كـــانوا عليه من السحر وحقيقة المعجزة التى أيد الله بها نبيه موسى عليـــه وعلى نبينا أفضل السلام .

" ولقد شهد التاريخ فرسانا للعربية خاضوا غمارها وأحـــرزوا قصب السبق فيها فما استطاع أحد منهم أن تحدثه نفسه بمعارضـــة القرآن إلا باء بالخزى والهوان .

بل إن التاريخ سجل هذا العجز على اللغة فى أزهى عصورهـا وأرقى أدوارها حين نزل هذا القرآن وقد بلغـــت العربيـــة شـــأوها وتوافرت لها عناصر الكمال والتـــهذيب فـــى المجـــامع العربيـــة وأسواقها ووقف القرآن من أصحاب هذه اللغة موقف التحدى ، فمـا استطاع أحد أن يباديه أو يجاريه منهم وهم أهـــل الأنفـــة والعـــزة والإباء ، ولو وجدوا قدرة على محاكاة شئ منه أو وجدوا ثغرة فيـه لما ركبوا المركب الصعب أمام هذا التحدى بإشهار السيوف بعد أن عجز البيان وتحطمت الأقلام .

ولا غرو فحيثما قلب الإنسان من نظره فى القرآن وجد أسراراً من الإعجاز اللفظى .

يجد ذلك فى نظامه الصوتى البديع بجرس حروفه حين يســمع حركاتها وسكناتها ، ومداتها وغناتها ، وفواصلها ومقاطعه فلا تمـل أذنه بل لا تفتأ تطلب منه المزيد .

ويجد ذلك فى ألفاظه التى تعنى بحق كل معنى فى موضعه لا ينبوا فيها لفظ يقال إنه زائد ، ولا يعثر الباحث على موضع يقول إنه يحتاج إلى إثبات لفظى ناقص ٠

ويجد ذلك فى ضروب الخطاب التى يتقارب فيها أصناف الناس فى الفهم بما تطيقه عقولهم فيراها كل واحد منهم مقدرة على مقياس عقله ووفق حاجته من العامة والخاصة ٠

وصدق الله حيث يقول ﴿ **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** ﴾ [1].

ويجد ذلك فى إقناع العقل وامتاع العاطفة بما يفى النفس البشرية تفكيرا ووجدانا فى تكافؤ واتزان فلا تطغى قوة التفكير على قوة الوجدان ولا قوة الوجدان على قوة التفكير وهكذا حيثما قلب النظر قامت أمامه حجة القرآن فى التحدى والإعجاز " [2] .

---

(١) سورة القمر الآية ١٧ ٠

(٢) مباحث فى علوم القرآن للشيخ مناع القطان ص ٢٦٥ ، ٢٦٧ مؤسسة الرسالة

الوجه الثانى

الإعجاز العلمى للقرآن

يخطئ كثير من الناس حين يحرصون على أن يتضمن القــران الكريم كل نظرية علمية ، وكلما ظهرت نظرية جديدة التمسوا لـــها محملا فى آية يتأولونها بما يوافق هذه النظرية .

ومنشأ الخطأ فى هذا أن العلوم تتجدد نظرياتها مع الزمن تبعـا لسنة التقدم ، فلا تزال فى نقص دائم يكتنفـــه الغمــوض أحيانـــا ، والخطأ أحيانا أخرى ، وتستمر هكذا حتى تقترب من الصـــواب ، وتصل إلى درجة اليقين ، وأي نظرية منها تبدأ بالتخمين وتخضــع للتجربة حتى يثبت يقينها ، أو يتضح زيفها وخطؤها ، ولهذا كـــانت عرضة للتبديل ، وكثير من القواعد العلمية التى ظن النـــاس أنـــها أصبحت من المسلمات تتزعزع بعد ثبوت و تتقوض بعد رســوخ ، ثم يستأنف الباحثون تجاربهم فيها مرة أخرى .

والذين يفسرون القرآن الكريم بمـــا يطـــابق مســـائل العلـــم ، ويحرصون على أن يستخرجوا منه كل مسألة تظـــهر فـــى أفـــق الحياة العلمية يسيئون إلى القرآن من حيث يظنون أنـــهم يحســـنون صنعا ، لأن هذة المسائل التى تخضع لسنة التقـــدم تتبـــدل ، وقـــد تتقوض من أساسها وتبطل ، فإذا فسرنا القرآن بها تعرضنـــا فـــى تفسيره للنقائض كلما تبدلت القواعد العلمية ، أو تتابعت الكشوف بجديد ينقض القديم ، أو يقين يبطل التخمين .

ومن ثم فلا يصح أن نعلق الحقائق القرآنية النهائية بمثل تلك النظريات حتى لا تقف محرجين عند ثبوت بطلان تلك النظرية .

ومن هنا يجب أن نتروى وأن ندرس بإمعان وننتظر حتى تثبت الحقيقة العلمية ثبوت اليقين قبل أن نتحدث عن ربطها بالقرآن الكريم .

فلا رفض للتفسير العلمى مطلقا ولا تأييد وتسليم له مطلقين بل بين حقيقتين : حقيقة قرآنية بالنص الذى لا يقبل الشك ، وحقيقة علمية ثابتة بالتجربة والمشاهدة القطعيين " فالعلم الحديث قد أثبت أنه لا توجد حقيقة كونية واحدة تتصادم مع ما جاء فى القرآن الكريم .. إن القرآن الكريم لا يتصادم مع قوانين الكون .. أو مع خلق الكون .. ولكن هذا التصادم المزعوم يأتى أحيانا عن حقيقة علمية كاذبة يحاول الناس استغلالها ضد القرآن " [1] .

لهذا فلا بأس من إيراد حقائق علمية ثابتة لا تقبل الشك عند تناول النص القرآنى مع إدراك معنى النص وفهمه فهما سليما خاليا من الشوائب والمؤثرات الخارجية أو الميل به والإنحراف لموافقة تلك الحقيقة العلمية **وهذا أيضا مشروط بـ : ـ**

١ ــ ألا تطغى تلك المباحث على المقصود الأول من القرآن وهو الهداية والإعجاز .

---

(١) معجزة القرآن للشيخ محمد متولى الشعراوى ص ٨٨ .

٢ ـ " أن تذكر تلك الأبحاث على وجه يدفع المسلمين إلى النهضة ويلفتهم إلى جلال القرآن ويحركهم إلى الإنتفاع بقوى هذا الكون الذى سخره الله لنا انتفاعا يعيد للأمة الإسلامية مجدها " [١] .

٣ ـ " أن تذكر تلك العلوم لأجل تعميق الشعور الدينى لدى المسلم والدفاع عن العقيدة ضد أعدائها وبيان موافقة القرآن الكريم للحقائق العلمية الثابتة " [٢] .

والقرآن الكريم كتاب عقيدة وهداية ، يخاطب الضمير فيحيى فيه عوامل النمو والإرتقاء ، وبواعث الخير والفضيلة .

وإعجازه العلمى ليس فى اشتماله على النظريات العلمية التى تتجدد وتتبدل وتكون ثمرة للجهد البشرى فى البحث والنظر ، وإنما فى حثه على التفكير ، فهو يحث الإنسان على النظر فى الكون وتدبره ، ولا يشل حركة العقل فى تفكيره ، أو يحول بينه وبين الإستزادة من العلوم ما استطاع إلى ذلك سبيلا ، وليس ثمة كتاب من كتب الأديان السابقة يكفل هذا بمثل ما يكفله القرآن .

والقرآن الكريم يحث المسلم على التفكير فى مخلوقات الله فى السماء والأرض : ﴿ **إن فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا**

---

(١) مناهل العرفان للشيخ الزرقانى ٥٦٩/١ ـ ٥٧٠ .

(٢) منهج الدراسة العقلية الحديثة فى التفسير لفهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومى ٢٨٣/١ .

وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ (١) .

ويحثه على التفكير فى نفسه ، وفى الأرض التى يعمرها ، وفى الطبيعة التى تحيط به ﴿ **أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى** ﴾ (٢) .

وفى القرآن مع هذا إشارات علمية سبقت مساق الهداية فالتلقيح فى النبات ذاتى وخلطى : والذاتى : ما اشتملت زهرته على عضوى التذكير والتأنيث ، والخلطى : هو ما كان عضو التذكير فيه منفصلا عن عضو التأنيث كالنخيل ، فيكون التلقيح بالنقل . ومن وسائل ذلك الرياح ، وجاء فى هذا قول الله تعالى ﴿ **وأرسلنا الرياح لواقح** ﴾ (٣).

ـ " والأكسجين ضرورى لتنفس الإنسان ، ويقل فى طبقات الجو العليا ، فكلما ارتفع الإنسان فى أجواء السماء أحس بضيق الصدر وصعوبة التنفس ، قال الله تعالى : ﴿ **فمن يُرد الله يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٩٠ ــ ١٩١ .

(٢) سورة الروم الآية ٨ .

(٣) سورة الحجر الآية ٢٢ .

(٤) سورة الأنعام الآية ١٢٥ .

وقد ساد الاعتقاد بأن الذرة هى الجزء الذى لا يقبل التجزئـــة : وفى القرآن ﴿ **وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فـــى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبيـــن** ﴾ (١) ولا أصغر من الذرة سوى تحطيم الذرة ٠

تلك الإشارات العلمية ونظائرها فى القرآن جاءت فـــى ســـياق الهداية الإلهية ، وللعقل البشرى أن يبحث فيها ويتدبر ٠

يقول الأستاذ سيد قطب فى تفسير قوله تعـــالى : ﴿ **يســألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج** ﴾ (٢) " اتجه الجواب إلـــى واقع حياتهم العملى لا إلى مجرد العلم النظـــرى ، وحدثـــهم عـــن وظيفة الأهلة فى واقعهم وفى حياتهم ولم يحدثهم عن الدورة الفلكيـــة للقمر وكيف تتم وهى داخلة فى مدلول السؤال : ما بال القمر يبـــدو هلالا ٠٠

والإجابة العلمية عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً فى الفلك ، إذ هم استطاعوا ، بما كان لديهم من معلومـــــات قليلة فى ذلك الحين ، أن يستوعبوا هذا العلم ، ولقد كان مشـــكوكا فيه كل الشك ، لأن العلم النظرى من هذا الطراز فى حاجـــة إلـــى مقدمات طويلة ، كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله فـــى ذلـــك الزمان معضلات ٠

---

(١) سورة يونس الآية ٦١ ٠

(٢) سورة الحج الآية ١٨٩ ٠

من هنا عدل عن الإجابة التى لم تتهيأ لها البشرية ، ولا تفيدها كثيرا فى المهمة الأولى التى جاء القرآن من أجلها وليس مجالها على أية حال هو القرآن ، إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية ، ولم يجئ ليكون كتاب علم فلكى أو كيماوى أو طبى .. كما يحاول بعض المتحمسين له أن يتلمسوا فيه هذه العلوم ، أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يتلمسوا مخالفاته لهذه العلوم ! .

إن كلتا المحاولتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله ، إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه ، ولوضع الإنسان فى هذا الوجود وارتباطه بربه ؛ وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته .. ومن بينها طاقته العقلية ، التى تقوم هى بعد تنشئتها على استقامة ، وإطلاق المجال لها لتعمل — بالبحث العلمى — فى الحدود المتاحة للإنسان — وبالتجريب والتطبيق ، وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ، ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال .

وإنى لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن ، الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه ، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات فى علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها .. كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه ! .

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة ، أما ما يصل إليه البحث الإنسانى — أيا كانت الأدوات المتاحة له — فهى حقائق

غير نهائية ولا قاطعة ، وهى مقيدة بحدود تجاربه وظـروف هـذه التجارب وأدواتها ٠٠ فمن الخطأ المنهجى ــ بحكم المنهج العلمـى الإنسانى ذاته ــ أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقـائق غـير نهائية وهى كل ما يصل إليه العلم البشرى ! ٠

هذا بالقياس إلى " الحقائق العلمية " ٠٠ والأمر أوضح بالقيـاس إلى النظريات والفروض التى تسمى " علمية " ومن هذه النظريـات والفروض كل النظريات الفلكية ، وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره ، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسـلوكه ٠٠ وكـل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها ٠٠ فهذه كلها ليست " حقائق علمية " حتى بالقياس الإنسانى ، وإنما هى نظريات وفـروض كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيويـة أو النفسية أو الإجتماعية ٠ إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدراً أكبر من الظواهر أو تفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق ! ومن ثم فـهى قابلـة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة بل قابلة لأن تنقلب رأسا علـى عقب ، بظهور أداة كشـف جديـدة ، أو بتفسـير جديـد لمجموعـة الملاحظات القديمة ٠

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامـة بمـا يصـل إليـه العلم من نظريات متجددة متغيرة ــ أو حتى بحقـائق علميـة ليسـت مطلقة كما أسلفنا ــ تحتوى أولا علـى خطـأ منـهجى أساسـى ٠ كما أنها تنطوى على معان ثلاثة كلـها لا يليـق بجـلال القـرآن الكريـم ٠٠٠

الأولى : هى الهزيمة الداخلية التى تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بـــالعلم ، أو الإستدلال له من العلم ، على حين أن القرآن كتاب كـــامل فـــى موضوعه ، ونهائى فى حقائقه . والعلم ما يزال فـــى موضوعـــه ينقض اليوم ما أثبته بالأمس ، وكل ما يصل إليه غـــير نـــهائى ولا مطلق ، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته وكلها ليـــس مـــن طبيعتها أن تعطى حقيقة واحدة نهائية مطلقة .

والثانية : سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته وهى أنـــه حقيقـــة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق — بقدر ما تسمح طبيعـــة الإنسان النسبية — مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهى حتـــى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله ، بل يصادقه ويعـــرف بعـــض أسراره ، ويستخدم بعض نواميسه فى خلافتـــه . نواميســـه التـــى تكشف له بالنظر والبحث والتجريب والتطبيق ، وفق ما يهديه إليـــه عقله الموهوب له ليعمل لا ليتسلم المعلومات المادية جاهزة ! .

والثالثة : هى التأويل المستمر — مـــع التمحـــل والتكلـــف — لنصوص القرآن كى نحملها ونلهف بها وراء الفروض والنظريـــات التى لا تثبت ولا تستقر وكل يوم يجد فيها جديد " [1] .

(1) اقتبسنا هذه الفقرات من كتاب فى ظلال القرآن ١/١٨٠ — ١٨٢ بتصرف .

الوجه الثالث
الإعجاز التشريعى

أودع الله فى الإنسان كثيرا من الغرائز والشهوات التى تؤثر عليه فى سلوكياته وفى اتجاهات حياته ، ولئن كان العقل الرشيد يعصم صاحبه من الذلل فإن النزعات النفسية المنحرفة تطغى على سلطان العقل ، ولا يستطيع العقل أن يكبح جماحها فى كل حال . لهذا كان لابد لاستقامة الإنسان من تربية خاصة لغرائزه تهذبها وتنميها ، وتقودها إلى الخير والفلاح .

وكثيرا ما يظلم الإنسان أخاه بدافع الأثرة وحب السيطرة ، فلو ترك أمر الناس دون ضابط يحدد علاقاتهم ، وينظم أحوال معاشهم ، ويصون حقوقهم ويحفظ حرماتهم لصار أمرهم فوضى ، ولذا كان لابد لأى مجتمع بشرى من نظام يحكم زمامه ، ويحقق العدل بين أفراده .

وقد عرفت البشرية فى عصور التاريخ ألوانا مختلفة من المذاهب والنظريات والنظم والتشريعات التى تستهدف سعادة الفرد فى مجتمع فاضل ، ولكن واحدا منها لم يبلغ من الروعة ، والإجلال مبلغ القرآن فى إعجازه التشريعى .

ومعنى هذا أن القرآن الكريم جاء بهدايات تامة كاملة ، تفى بحاجات البشر فى كل عصر ومصر ، وفاء لا تظفر به فى أى تشريع ولا فى أى دين أخر ويتجلى هذا إذا استعرضنا المقاصد النبيلة التى رمى إليها القرآن فى تشريعاته وهى : ــ

أولا : اصلاح العقائد عن طريق تحرير وجدان الإنسان مـــن سـلطان الخرافة والوهم ،وفك أسره من عبودية الأهــواء والشــهوات ، حتى يكون عبدا خالصا لله ، يتجرد للإله الخالق المعبود الذى لا أول له ولا أخر ، قدير على كل شئ ، عليم بكل شئ محيط بكل شئ ، وليس كمثله شئ ﴿ **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلـــد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** ﴾ (١) ﴿ **هـــو الأول والآخـر والظاهر والباطن وهو بكل شئ عليم** ﴾ (٢) ﴿ **كل شئ هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون** ﴾ (٣) ﴿ **وكان الله على كل شئ قديراً** ﴾ (٤) ﴿ **ألا إنه بكل شئ محيط** ﴾ (٥) ﴿ **ليس كمثله شئ وهو السميع البصير** ﴾ (٦) ﴿**لا تدركه الأبصـــار وهــو يـــدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير** ﴾ (٧) .

ويؤكد القرآن الكريم وحدانية الله بالحجج القاطعة التـــى تقــوم على المنطق العقلى السليم يقول تعالى : ﴿ **لو كان فيهما آلهـــة إلا الله لفسدنا** ﴾ (٨) .

---

(١) سورة الإخلاص .

(٢) سورة الحديد الآية ٣ .

(٣) سورة القصص الآية ٣ .

(٤) سورة الأحزاب الآية ٢٧ .

(٥) سورة فصلت الآية ٥٤ .

(٦) سورة الشورى الآية ١١ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٠٥ .

(٨) سورة الأنبياء الآية ٢٢ .

وقال : ﴿ **قل لو كان معه ألهة كما يقولون إذا لا ابتغوا إلى ذى العرش سبيلا** ﴾ [1] .

ثانيا : إصلاح العبادات عن طريق إرشاد الخلق إلى ما يزكى النفوس ويغذى الأرواح ويقوم الإرادة ويفيد الفرد والمجتمع .

فالصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وحسب المسلم فى تربيته أن يقف بين يدى الله خمس مرات فى اليوم الواحد ، ويعلم أنه يؤدى فريضة الصلاة ، ويستقبل معه قبلة واحدة ، ويدعوا بدعاء واحد وإن تباعدت الديار ، من هنا تمتزج حياته بشوع الله ، ويتمثل الوازع الأعلى نصب عينيه ما بين صلاة وصلاة ﴿ **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** ﴾ [2] .

والزكاة تقتلع من النفس جذور الشح ، وعبادة المال ، والحرص على الدنيا ، وهى مصلحة للجماعة ، فتقيم دعائم التعاون بين الأغنياء والفقراء ، وتشعر النفس بتكافل الجماعة شعورا يخرجها من ضيق الأثرة والإنفراد .

والصيام ضبط للنفس ، وتقوية للإرادة ، وحبس للشهوات ، وهو مظهر اجتماعى يعيش فيه المسلمون شهراً كاملا على نظام واحد فى طعامهم فالكل فى لحظة واحدة عند سماع مدفع الإفطار يهرعون إلى طعام مرددين الدعاء المشهور " اللهم لك صمت

---

(١) سورة الإسراء الآية ٤٢ .

(٢) سورة العنكبوت اللآية ٤٥ .

وعلى رزقك فطرت " وعند سماع مدفع الإمساك بأمر الهى ينزع المسلم عن كل شهواته شهوة البطن وشهوة الفرج مستشعرا رقابة الله تعالى له • وفى هذا قمة وروعة الإعجاز التشريعى •

وإذا انتقلنا إلى فريضة الحج فهو عبادة تروض النفس على المشقة ، وتفتح بصيرتها على أسرار الله فى خلقه ، وهو مؤتمر عالمى يجتمع فيه المسلمون على صعيد واحد فيتعارفون ويتشاورون ويدعون ربا واحداً •

ومن هنا فإن العبادات المفروضة تربى المسلم على الشعور بالتبعة الفردية التى يقررها القرآن وينوط بها كل تكليف من تكاليف الدين ، وكل فضيلة من فضائل الأخلاق ، قال تعالى : ﴿ **كل امرئ بما كسب رهين** ﴾ (1) •

ثالثا : إصلاح الأخلاق عن طريق إرشاد الخلق إلى فضائلها وتنفيرهم من رزائلها ، فى قصد واعتدال وعند حد وسط لا إفراط فيه ولا تفريط •

وقد حض القرآن على الفضائل المثلى التى تروض النفس على الوازع الدينى كالصبر فهو سلاح المؤمن ولابد منه لنجاحه وبدونه لا ينتج مشروع ولا يتم عمل من الأعمال ، نهذا عنى القرآن بالصبر فمدحه ورفع منزلته وأعلى قدره وأثنى على المتحلين به ثناء لا مزيد عليه وذكره فى حوالى نيف وسبعين مرة ولم يذكر

---

(1) سورة الطور الآية ٢١ •

فضيلة أخرى بهذا المقدار فهذا يدل على عظم أمره وسمو مكانتـــه لأنه أساس كثير من الفضائل بل هو أهمها فما من فضيلة إلا وهــي محتاجة إليه لهذا أمر الله بالصبر ووعـــد الصـــابرين بـــالفلاح فقـــال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إصبروا وصابروا ورابطوا واتقـــوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ (١) وقال : ﴿ **واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور** ﴾ (٢) ، ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغـــير حســـاب** ﴾ (٣) ﴿ **وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا** ﴾ (٤)،﴿ **وبشر الصابرين** ﴾ (٥) .

ومن الفضائل التى أمر الله تعالى بها عباده فضيلـــة العـــدل ، فالعدل مطلوب فى كل الأمور ، فى حال الرضا والغضب وســـواء أكان الخصم قريبا أم بعيدا ، وغنيا أو فقيرا ، فقال فى محكم كتابـــه : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولـــو علـــى أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا او فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ (٦) ، وقال : ﴿ **وإذا قلتم فأعدلوا ولو كان ذا قربى** ﴾ (٧) .

---

(١) سورة آل عمران الآية ٢٠٠ .

(٢) سورة لقمان الآية ١٧ .

(٣) سورة الزمر الآية ١٠ .

(٤) سورة الإنسان الآية ١٢ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٥٥ .

(٦) سورة النساء الآية ١٣٥ .

(٧) سورة الأنعام الآية ١٥٢ .

وقال تعالى فى فضيلة الحلم والعفو : ﴿ **وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** ﴾ (١) .

وقال تعالى فى فضيلة التواضع : ﴿ **تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا فى الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين** ﴾ (٢) ، فالتواضع يزيد الشريف شرفا ويرفع الوضيع حتى يصل إلى مقامات الأولياء والأصفياء فقال سبحانه وتعالى : ﴿ **يحبهم الله ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين** ﴾ (٣) .

رابعا : إصلاح الأسرة ، لأنها نواة المجتمع فشرع القرآن الزواج استجابة لغريزة الجنس وإبقاء على النوع الإنسانى فى تناسل طاهر نظيف .

ويقوم رباط الأسرة فى الزواج على الود والرحمة والسكن النفسى والعشرة بالمعروف ومراعاة خصائص الرجل وخصائص المرأة والوظيفة الملائمة لكل منهما . ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ (٤) .

---

(١) سورة آل عمران الآيتان ١٣٣ ، ١٣٤ .

(٢) سورة القصص الآية ٨٣ .

(٣) سورة المائدة الآية ٥٤ .

(٤) سورة الروم الآية ٢١ .

﴿ **وعاشروهن بالمعروف** ﴾ [1] . ﴿ **الرجال قوامون على نساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم** ﴾ [2] .

خامسا : الإصلاح النسائى عن طريق حماية المرأة واحترامها وإعطائها جميع الحقوق الإنسانية والدينية والمدنية . قال تعالى ﴿ **يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء** ﴾ [3] .

ويقول عز من قائل : ﴿ **فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض** ﴾ [4] .

ويقرر القرآن حرية المرأة فى أموالها بقوله تعالى ﴿ **للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن** ﴾ [5]

والزوج هو الذى يدفع المهر ويقوم بالإنفاق على زوجته وأولاده وتأمين المسكن لهم لقوله تعالى : ﴿ **وأتوا النساء صدقاتهن نحلة** ﴾ [6] .

وأمر القرآن الكريم الأزواج بالصبر على المعاشرة بالمعروف حتى مع الكراهية ، فقد يكره الإنسان أمراً ويجعل الله

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة النساء الآية ٣٣ .

(٣) سورة النساء الآية ١ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٩٥ .

(٥) سورة النساء من الآية ٣٢ .

(٦) سورة النساء الآية ٤ .

فيه خيرا كثيرا قال تعالى مخاطبا الأزواج ﴿ **وعاشروهن بالمعروف ، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيراً** ﴾ [1] .

ويقول تعالى مخاطبا الأزواج إذا طلقوا زوجاتهم :
﴿ **أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ولا تضاروهن لتضيقوا عليهن ، وإن كن أولات حمل فأنفقوا عليهن حتى يضعن حملهن * فإن أرضعن لكم فأتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف** ﴾ [2] .

سادسا : إصلاح الإجتماع عن طريق إرشاد الخلق إلى توحيد صفوفهم ومحو العصبيات وإزالة الفوارق التى تباعد بينهم ، وذلك بإشعارهم أنهم جنس واحد من نفس واحدة قال تعالى :

﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [3] ، وأنهم أمة واحدة يؤلف بينها المبدأ ولا تفرقها الحدود الإقليمية ولا الفواصل السياسية ﴿ **وإن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاتقون** ﴾ [4] .

سابعا : إصلاح السياسة والحكم الذى يسود المجتمع المسلم ، وقد قرر القرآن قواعد الحكومة الإسلامية فى أصلح أوضاعها .

---

(١) سورة النساء الآية ١٩ .

(٢) سورة الطلاق الآية ٦ .

(٣) سورة الحجرات الآية ١٣ .

(٤) سورة الأنبياء الآية ٩٢ .

فهى حكومة الشورى والمساواة ومنع السيطرة الفردية ٠

﴿ وشاوروهم فى الأمر ﴾ [١] **﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾** [٢] .

والتشريع فى الحكومة الإسلامية ليس متروكا للناس ، فقد قرره القرآن والخروج عنه كفر وظلم وفسق ٠

﴿ ومن من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون ﴾ [٣] .

ثامنا : الإصلاح المالى عن طريق الدعوة إلى الاقتصاد وحماية المال من التلف والضياع ، ووجوب انفاقه فى وجوه البر وأداء الحقوق الخاصة والعامة والسعى المشروع يقول عز من قائل : **﴿ يا بنى أدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ﴾** [٤]. **﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾** [٥]. **﴿ إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾** [٦] . **﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسورا ﴾** [٧] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ ٠

(٢) سورة الشورى الآية ٣٨ ٠

(٣) سورة المائدة الآية ٤٤ ٠

(٤) سورة الأعراف الآية ٣١ ٠

(٥) سورة الفرقان الآية ٦٧ ٠

(٦) سورة الإسراء الآيتان ٢٦ ، ٢٧ ٠

(٧) سورة الإسراء الآية ٢٩ ٠

﴿ ... ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل ﴾ [1] .

﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وظهورهم هذا ما كنزهم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ [2] .

تاسعا : صيانة الكليات الخمسة الضرورية للحياة الإنسانية : النفس ، والعرض ، والمال ، والعقل ورتب عليها العقوبات المنصوصة ، التى تعرف فى الفقه الإسلامى بالجنايات والحدود .

﴿ ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ﴾ [3] .

﴿ والزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهم مائة جلدة ﴾ [4].

﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ﴾ [5] .

﴿ والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ﴾ [6].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٨ .

(٢) سورة التوبة الآيتان ٣٤ ، ٣٥ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٧٩ .

(٤) سورة النور الآية ٢ .

(٥) سورة النور الآية ٤ .

(٦) سورة المائدة الآية ٣٨ .

عاشرا : تقرير العلاقات الدولية فى الحرب والسلم بين المسلمين وجيرانهم أو معاهديهم ، وهى أرفع معاملة عرفت فى عصور الحضارة الإنسانية .

وخلاصة القول : أن القرآن دستور تشريعى كامل يقيم الحياة الإنسانية على أفضل صورة وأرقى مثال ، وسيظل إعجازه التشريعى قرينا لإعجازه العلمى وإعجازه اللغوى إلى الأبد ، ولا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحدث فى العالم أثرا غير وجه التاريخ .

* * * *

المبحث الثانى
المحكم والمتشابه

لقد اختلف العلماء حول تحديد معنى المحكم والمتشابه ، لأنـــها متقاربة حينا ، ومتباعدة حينا آخر ، ومتداخلة حينا ثالثا ·

وسبب هذا أن هذين اللفظين من قبيل المشترك اللفظى ، لـــهما استعمالات عدة ، ولا نستطيع ترجيح معنى على آخـــر ، إلا مــن خلال قرينة ترجح أمرا على آخر ·· وقبل الخـــوض فـــى بيـــان المعنى المراد لكل منهما ، ينبغى معرفة معناهما من جهـــة اللغـــة حتى يتسنى لنا معرفة معناهما الاصطلاحى ·

المحكم لغة : اسم مفعول ، وفعله · أحكم يحكم إحكاما فهو محكم ·

وهذه المادة أى : الإحكام تستعمل لعدة معان : الإتقـــان ، ومنـــه البناء المحكم الذى أتقن فلا يتطرق إليه الخلل والفساد · ويقال : أحكـــم الناس الأمر · أى : منعوه من تسرب الخلل إليه وبذا يكون أمـــرا متقنـــا · ويقال : حكم الناس الأمر ، أى : منعوه من تسرب الخلل إليه ، وبـــذا يكون أمرا متقنا · ويقال : حكمت الفرس وأحكمته إذا منعته وكففتـــه ، بأن جعلت له " حكمة " وهى ما أحاط بحنكى الفرس من اللجـــام ، لأنها تمنع الفرس عن الإضطراب ، وقيل : أحكم اليتيم كما تحكـــم ولدك أى " منعه عن الفساد ، وسميت الحكمة حكمة ، لأنها تمنـــع عما لا ينبغى ، وتمنع صاحبها من الجهل " [١] ·

---

(١) لسان العرب : مادة حكم ١٢/١٤٤ ·

من جميع ما تقدم نجد أن مادة الإحكام لا تخرج لغة عن وضع الأمور فى موضعها بدقة وإتقان وعلم • بحيث لا يتطرق إليها الخلل والفساد والغموض •

والمحكم : هو المتقن الذى لا يتطرق إليه الفساد من وجه من الوجوه ، أو الجلى الذى لا يعتريه الخفاء • وهكذا نجد استعمال المادة في النظم القرآنى ، فقد جاء فيه ما يدل على أنه كله محكم •

قال تعالى : ﴿ **الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** ﴾ (١) بمعنى : نظمت آياته تنظيما محكما ثم فصلت بعقائد وأحكام ومواعظ وأخبار من عند خبير يضع الأمور فى موضعها بعلم محيط • وقال تعالى : ﴿ **الر تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ (٢) •وقال تعالى : ﴿ **الم تلك آيات الكتاب الحكيم** ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ **يس والقرآن الحكيم** ﴾ (٤) • فالقرآن كله محكم على هذا المعنى •

وأما المتشابه لغة : فهو من الشبه والشبيه ، وهو التماثل بين شيئين أو أشياء • ولما كان التماثل بين الأشياء يؤدى إلى الشك

---

(١) سورة هود الآية ١ •

(٢) سورة يونس الآية ١ •

(٣) سورة لقمان الآية ٢ •

(٤) سورة يس الآيتان ١ ، ٢ •

والحيرة ، ويوقع فى الالتباس توسعوا فى اللفظ ، وأطلقوا " متشابه " و " مشتبه " على كال ما دق وغمض [1] .

وبناء على الإطلاق اللغوى للمحكم والمتشابه وهو إطلاق شامل واسع فإن بوسعنا أن نفهم استعمال القرآن هذين اللفظين بإطلاقات متعددة ولمعان متنوعة ، وُصف فيها القرآن بالإحكام ووُصف بالتشابه فى ثلاثة أحوال :

١ ـ **القرآن محكم** : فقد وصف القرآن كله بالإحكام فى أكثر من موضع فى القرآن . كما سبق أن بينا أول سورة هود ، وأول سورة يونس ، وأول سورة يس ... ومعنى ذلك : أن جميع آيات القرآن أتقنت ، بحيث لا يتطرق إليها أى خلل أو فساد فى ألفاظه أو معانية .

٢ ـ القرآن كله متشابه : كذلك وُصف القرآن كله بأنه متشابه ، فى قوله تعالى : ﴿ **الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم . ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله** ﴾ [2] .

فقد جاء مدح القرآن هنا بأنه (متشابه) أى يشبه بعضه بعضاً فى الحسن والإعجاز ، ويصدق بعضه بعضاً (مثانى) يردد فية القول ، أو يذكر الشئ وضده ، كذكر المؤمنين ثم الكافرين ، وكصفة الجنة ثم صفة النار ، وهكذا .

---

(١) لسان العرب مادة شبه ١٣ / ٥٠٤ .

(٢) سورة الزمر من الآية ٢٣ .

مما سبق يتبين لنا أن المحكم والمتشابه بمعناه المتقدم لاينـافى أحدهما الآخر ، فالقرآن كله متقن ومتماثل فإذا أمر القرآن بأمر لـم يأمر بنقيضه فى موضع آخر ، فلا تضاد فيه و لا اختلاف قال تعالى :

﴿ **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ [١] .

٣ ــ **القرآن محكم ومتشابة** : فقد وصف القرأن بأن بعضه محكـم ، وبعضه متشابه قال تعالى : ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتـاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذيـن فى قلوبهم زيغ فيتبعون ماتشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغـاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولـون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [٢].

أى : إنة فى جملته ينقسم إلى قسمين . منه ما هـو واضـح الدلالة على المراد ، ومنه ماخفيت دلالته على المراد [٣]

ولهذا اختلف العلماء ، وتعددت الأقوال[٤] .

القول الأول : أن المحكم ما عرف المراد منه إمـا بالظـهور وإما بالتأويل ، والمتشابه ما استأثر الله بعلمـه ــ كقيـام السـاعة وخروج الدجال والحروف المقطعة في أوائل السور .

---

(١) سورة النساء من الآية ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران ٧ .

(٣) مناهل العرفان ٢/٢٦٧ .

(٤) راجع هذه الأقوال فى الإتقان ٣/٤٠٣ ، تحقيق محمد أبو الفضـل ابراهيـم ، والبرهان فى علوم القرآن ٢/٦٩ــ ٧٠ ، ومناهل العرفان ٢/٢٦٨ ، ٢٦٩ .

القول الثاني : أن المحكم ما وضح معناه ، والمتشابه نقيضه ٠

القول الثالث : أن المحكم ما لا يحتمل من التـأويل إلا وجـها واحداً ، والمتشابه ما احتمل أوجهاً ٠

القول الرابع : أن المحكم ما كان معقول المعنـى والمتشـابه بخلافه ، كأعداد الصلوات واختصـاص الصيـام برمضـان دون شعبان ، قاله الماوردى ٠

القول الخامس : أن المحكم ما استقل بنفسه ، والمتشابه مـا لا يستقل بنفسه إلا برده إلى غيره ٠

القول السادس : وهو مأثور عن الإمام ابن عبـاس ومجـاهد ﷺ أن المحكم : ما أحكم الله تعالى فيه بيان حلاله وحرامه ، والمتشابه : ما أشبه بعضه بعضاً في المعاني وإن اختلفت ألفاظـه [١] وقـد أُثـرت روايات عديدة تؤكد هذا الرأي ٠

فقد أخرج الإمام السيوطى عن ابن عباس ــ رضى الله عنهما ــ أنه قال " المحكمات : الحلال والحرام " كما أخرج عنه أنه قال في قوله تعالى ﴿ **فيه آيات محكمات** ﴾ قال : من هاهنا ﴿ **قل تعالوا أتل مـا حرم ربكم عليكم ..** ﴾ [٢] ، إلى ثـلاث آيـات ، ومـن هـهنا : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه** ﴾ [٣] إلى ثلاث آيات بعدها ٠

---

(١) انظر تفسير الطبري ١١٥/٣ ٠

(٢) سورة الأنعام الآيات ١٥١ــ١٥٣ ٠

(٣) سورة الإسراء الآيات ٢٣ــ٢٥ ٠

وأخرج عن ذلك مجاهد أنه قال : " المحكمات : ما فيه الحلال والحرام ، وما سوى ذلك منه متشابه يصدق بعضه بعضاً "[1] .

وكذلك أخرج السيوطى عن عكرمة وقتادة أن المحكم : الذي يعمل به ، والمتشابه : الذي يؤمن به ولا يعمل به [2] .

وقد عقب الشيخ الزرقانى على هذا الرأي فقال : " فيه قصراً للمحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وقصراً للمتشابه على ما كان من قبيل العقائد ، وإطلاق القول فيها على هذا الوجه غير سديد فإن أرادوا بالمحكم أنه هو الواضح الذي يؤخذ بمعناه على التعيين ، وبالمتشابه ما كان خفياً يجب الإيمان به دون تعيين لمعناه ، نقول : إن أرادوا ذلك فالعبارة قاصرة عن أداء هذا المراد " انتهى ٠

وقد أعجبني رد الدكتور / جودة المهدى [3] على هذا التعقيب حيث قال : " إن ما ذهب إليه صاحب (المناهل) من أن كلام الإمامين ــ ابن عباس ومجاهد وكذلك : عبارة قتادة وعكرمة رضوان الله عليهم أجمعين يفيد قصر المحكم على ما كان من قبيل الأعمال ، وحصر المتشابه فيما كان من قبيل العقائد : غير متحقق وإن كان متعلقة الأوامر والنواهي ، أو الحلال والحرام ٠

---

(١) انظر الإتقان٣ / ٤ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ٠

(٢) المرجع السابق ٣ / ٥ ٠

(٣) تمار الجنان فى أفنان من علوم القرآن ص٢٩ ، ٣٠ ٠

وقال : ألا ترى أن الإمام ابن عباس ـ رضي الله عنه ـ قد فسر المحكمات بوصايا سورة الإنعام ﴿ **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئاً ..** ﴾ الخ والوصية الأولى فيها هي النهى عن الإشراك بالله تعالى ومفاده : الأمر بالتوحيد وهو من قبيل العقائد ؟ ؟ وكذلك افتتحت وصايا (الإسراء) بقوله تعالى : ﴿ **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه ..** ﴾ وهو أمر بتوحيده سبحانه وتعالى في العبادة والعقيدة روح العبادة وروح الأعمال ذاتها ، فمن الممكن قطعاً أن تدخل الأمور العقدية في سياق الأوامر والنواهي ، وتكون حينئذ محكمة لا لبس فيها ، ثم يتبدد الفصل المزعوم بين العقائد والأعمال في نطاق الحلال والحرام أو الأوامر والنواهي لا سيما إذا سلمنا بأن الإعتقادات إنما هي أعمال القلوب !! " .

القول السابع : وهو لابن الحصار : أن الله تعالى قسم آيات القرآن إلى محكم ومتشابه ، وأخبر عن المحكمات أنها أم الكتاب ، لأن إليها ترد المتشابهات ، وهي التي تعتمد في فهم مراد الله في كل ما تعبدهم به من معرفته وتصديق رسله وامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ، وبهذا الإعتبار كانت أمهات ، ثم أخبر عن الذين في قلوبهم زيغ أنهم هم الذين يتبعون ما تشابه منه ، ومعنى ذلك أن من لم يكن على يقين من المحكمات ، وفي قلبه شك واسترابة كانت راحته في تتبع المشكلات المتشابهات ، ومراد الشارع منها التقدم إلى فهم المحكمات ، وتقديم الأمهات ، حتى إذا

حصل اليقين ورسخ العلم لم تبل بما أشكل عليك ومراد هذا الـــذي في قلبه زيغ التقدم إلى المشكلات ، وفهم المتشابه قبل فهم الأمـــهات ، وهو عكس المعقول والمعتاد والمشـــروع ، ومثـــل هــؤلاء مثـــل المشركين الذين يقترحون على رسلهم آيات غير الآيات التى جاءوا بها ، ويظنون أنهم لو جائتهم آيات أخر لآمنوا عندها جهلاً منـــهم ، وما علموا أن الإيمان بإذن الله تعالى أ هـ [1] .

القول الثامن : " وهو للإمام الفخر الرازى واختاره كثير مـــن المحققين : أن المحكم : ما كانت دلالته على المراد راجحة ، وهـــو النص ، والظاهر ٠ والمتشابه : ما كانت دلالته على المراد غـــير راجحة وهو المجمل والمؤول والمشكل ٠

وبيان ذلك :

أن اللفظ الذى جعل موضوعا لمعنى ، إما ألا يكـــون محتمـــلا لغيره ، أو يكون محتملا لغيره ٠

الأول : النص ، والثانى ، إما أن يكون احتمالـــه لأحـــد المعـــانى راجحا ولغيره مرجوحا ، وإما أن يكـــون احتمالـــه لـــهما بالسوية واللفظ بالنسبة للمعنى الراجـــح يســـمى ظـــاهرا ، وبالنسبة للمعنى المرجوح يسمى مؤولا ، وبالنسبة للمعنيـــن المتساويين أو المعانى المتساوية يسمى مشتركا وبالنســـبة لأحدهما على التعيين ، يسمى مجملا ، وقد يســـمى اللفـــظ

---

(١) الإتقان ٣ / ٩ ، ١٠ ٠

مشكلا ، إذا كان معناه الراجح ، باطلا ، ومعناه المرجـــوح حقا ٠

إذا عرفت هذا فالمحكم ما كانت دلالته راجحة ، وهو النــــص والظاهر ؛ لاشتراكهما فى حصول الترجيح ، إلا أن النص راجـــح مانع من الغير ، والظاهر راجح غير مانع منه ٠

أما المتشابه فهو ما كانت دلالته غير راجحة ، وهو المجمـــل والمؤول والمشكل ؛ لإشتراكها فى أن دلالة كل منها غـــير راجحـــة ، وأما المشترك فإن أريد منه كل معانيه ٠ فهو من قبيل الظـاهر وإن أريد بعضها على التعيين فهو مجمل ٠

ثم إن صرف اللفظ عن المعنى الراجح ، إلى المعنى المرجـــوح ، لابد فيه من دليل منفصل ٠

وذلك الدليل المنفصل إما أن يكون لفظيا وإما أن يكون عقليـــا والدليل اللفظى لا يكون قطعيا لأنه موقوف على نقل اللغات ، ونقل وجوه النحو والتصريف ، وموقوف على عدم الاشـــتراك ، وعـــدم المجاز ، وعدم الإضمار ، وعدم التخصيص ، وعـــدم المعـــارض العقلى والنقلى ، وكل ذلك مظنون ، والموقـــوف علـــى المظنـــون مظنون ٠

وعلى ذلك ، فلا يمكن صرف اللفظ عن معناه الراجح ، بدليـــل لفظى فى المسائل الأصولية الإعتقاديـــة ، ولا يجـــوز صرفـــه إلا بواسطة قيام الدليل القطعى العقلى على أن المعنى الراجح محـــــال

عقلا ، وإذا عرف المكلف ، أنه ليس مراد الله تعالى ، فعند ذلك لا يحتاج إلى أن يعرف ذلك المرجوح ما هو ؟ لأن طريقه إلى تعيينه ، إنما يكون بترجيح مجاز على مجاز ، وبترجيح تأويل على تأويل . وذلك الترجيح لا يكون إلا بالدلائل اللفظية وهى لا تفيد إلا الظن ، والتعويل عليها فى المسائل القطعية لا يفيد ، لذا كان مذهب السلف : عدم الخوض فى تعيين التأويل فى المتشابه ، بعد اعتقاد أن ظاهر اللفظ محال ، لقيام الأدلة العقلية القطعية على ذلك " أ . هـ [1].

وأصوب هذه الأقوال ، قول الرازى ، وذلك لأنه جامع مانع فلم يُدخل فى المحكم ما كان خفيا ، ولا فى المتشابه ما كان جليا ، لأنه استوفى وجوه الظهور والخفاء استيفاء تاما ، فى بيان تقسيمه الذى بناه على راجح ومرجوح ، والذى أعلن لنا منه أن الراجح ما كان واضحا لا خفاء فيه ، وأن المرجوح ما كان خفيا لا جلاء معه.

وقريب منه رأى العلامة الطيبى وهو أن المحكم : هو الواضح المعنى الذى لا يتطرق إليه إشكال . والمتشابه : هو الذى طرأ عليه خفاء فى المعنى المراد منه [2].

حتى كاد أن يكون رأى الإمام الطيبى لو أتم وجوه الدلالة هو نفس رأى الرازى .

---

(1) أنظر مناهل العرفان ٢/ ١٧٠ ــ ١٧١ .

(2) أنظر رأى الطيبى فى الإتقان .

أقسام المتشابه فى التنزيل

باستقصاء الآيات المتشابهة ندرك أن سبب التشابه هـو خفـاء مراد الشارع وغموضه ٠

وإذا فصلنا الأمر تفصيلا يتبين لنا أن مرجع التشابه إلى ثلاثـة أقسام :

القسم الأول : المتشابه من جهة اللفظ فقط ٠

وذلك أن اللفظ ينقسم إلى مفرد ومركب ٠

١ ــ **ففى المفرد** : قد يكون التشابه فيه بسـبب خفائـه وغرابتـه واستعماله قليل : كقوله تعالى : ﴿ **وفاكهة وأبا** ﴾ فكلمـة الأب : ما ترعاه الدواب ، والذى يؤكد ذلك ما جاء بعد ذلك ﴿ **متاعا لكم ولأنعامكم** ﴾ [1] ٠ فالفاكهة للإنسان والأب للانعام ٠

٢ ــ قد يكون المتشابه بسبب مجيئه على سبيل المشترك اللفظـى فقوله تعالى ﴿ **فراغ عليهم ضربا باليمين** ﴾ [2] ففـى كلمـة "اليمين " خفاء فى اللفظ لاشتراكها فى الدلالة على عدة معـان : فاليمين تستعمل بمعنى مطلق القوة ، أو الجارحة المعروفـة ، أو القسم ، أو الجهة ٠٠

٣ ــ وقد يكون التشابه بسبب اختصار المركب نحو قوله تعـالى : ﴿ **وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ما طاب لكم مـن**

---

(١) سورة عبس الآية ٣٢ ٠

(٢) سورة الصافات الآية ٩٣ ٠

النساء مثنى وثلاث ورباع .. ﴾ [١] فالخفاء حصل بسبب اختصاره : وأصل التركيب : إذا تحرجتم من زواج اليتيمات مخافة الظلم فأعرضوا عن زواجهن وتزوجوا غيرهن .. فلما حصل الإيجاز حدث الخفاء والتشابه وقد قيل : إنهم كانوا يتحرجون من ولاية اليتامى ولا يتحرجون من الزنا فقيل لهم : إن خفتم ألا تعدلوا فى أمر اليتامى فخافوا الزنا فانكحوا ما حل لكم [٢] .

٤ ـ وقد يكون التشابه " الخفاء " فى المركب بسبب بسطه والإطناب فيه نحو قوله جلت حكمته ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ فإن حرف الكاف لو حذف لصارت العبارة " ليس مثله شئ " وأصلها " ليس مثل مثله شئ " فالخفاء القائم بسبب الإطناب فى التركيب ، " قال الزجاج : وابن جنى : الكاف زائدة للتأكيد وقال الألوسى : فى الجملة الكريمة كناية مشتملة على مبالغة وهى أن المماثلة منفية عمن يكون مثله وعلى صفته فكيف عن نفسه ، وهذا لا يستلزم وجود المثل ، إذا الفرض كاف فى المبالغة " [٣] .

٥ ـ وقد يكون التشابه فى المركب بسبب الترتيب كقوله تعالى : ﴿ **الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا**

---

(١) سورة النساء الآية ٣ .

(٢) انظر تفسير البيضاوى ٨٤/١ ط الحلبى الثانية .

(٣) انظر روح المعانى للألوسى ١٨/٢٥ بتصرف .

قيما ﴾ [1] والتقدير " .. الذى أنزل على عبده الكتاب قيمـــا ولم يجعل له عوجا " .

قال أهل اللغة : العوج فى المعانى كـــالعوج فـــى الأعيـــان ، والمراد منه :

١ ـ نفى التناقض عن آياته كما قال تعالى : ﴿ **ولو كان من عنـــد غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ [2] .

٢ ـ وأن كل ما ذكره الله من التوحيد والنبوة والأحكام والتكـــاليف فيه حق وصدق ولا خلل فى شئ منها .

وقوله ﴿ **قيما** ﴾ أى مستقيما .

قال الفخر الرازى : وهذا عندى مشكل لأنه لا معنـــى لنفـــى الإعوجاج إلا حصول الاستقامة فتفسير القيـــم بالمســـتقيم يوجـــب التكرار وأنه باطل بل الحق أن المراد من كونه ﴿ **قيما** ﴾ أنه ســـبب لهداية الخلق ، وأنه يجرى مجرى من يكون قيما للأطفال فـــالأرواح البشرية كالأطفال ، والقرآن كالقيم الشفيق القائم بمصالحهم .

قال الواحدى : جميع أهل اللغة والتفسير قالوا هذا من التقديـــم والتأخير والتقدير : أنزل على عبده الكتاب قيما ولم يجعل له عوجا .

ورد الفخر الرازى عليه قائلا : إن قوله : ﴿ **ولم يجعل لـــه عوجا** ﴾ يدل على كونه كاملا فى ذاته ، وقوله ﴿ **قيما** ﴾ يدل على

---

(١) سورة الكهف الآيتان ١ ، ٢ .

(٢) سورة النساء الآية ٨٢ .

كونه مكملا لغيره • وكونه كاملا فى ذاته متقدم بالطبع على كونه مكملا لغيره فثبت بالبرهان العقلى أن الترتيب الصحيح هو الذى ذكره الله تعالى وهو وقوله ﴿ **ولم يجعل له عوجا قيما** ﴾ فظهر أن ما ذكروه من التقديم والتأخير فاسد يمتنع العقل من الذهاب إليه[1].

وتعد أوائل السور من الحروف المقطعة مثل " الم " " الر " " حم " " ص " " ن " من المتشابه الذى حصل فيه خفاء من جهة اللفظ [2].

القسم الثانى : وهو ما كان التشابه فيه من جهة المعنى :

ويتضمن هذا القسم ما ورد فى التنزيل وصفا لله تبارك وتعالى نحو قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ [3] ، ﴿ **كل شئ هالك إلا وجهه** ﴾ [4] ، ﴿ **ويبقى وجه ربك** ﴾ [5] ، ﴿ **يد الله فوق أيديهم** ﴾ [6] ﴿ **والسموات مطويات بيمينه** ﴾ [7] ، و أيضا من هذا القسم ــ المتشابه من جهة المعنى ــ وما جاء فى القرآن الكريم من أهوال القيامة أو نعيم الجنة وعذاب النار ، فإن تلك الصفات بمنأى عن تصورنا فكيف نتصور مالم نحسه •

---

(١) أنظر الفخر الرازى ٢١ / ٧٥ بتصرف •

(٢) مناهل العرفان ٢/١٧٥ •

(٣) سورة طه الآية ٥ •

(٤) سورة القصص الآية ٨٨ •

(٥) سورة الرحمن الآية ٢٧ •

(٦) سورة الفتح الآية ١٠ •

(٧) سورة الزمر الآية ٦٧ وسوف نتعرض لها بشئ من التفصيل إن شاء الله •

القسم الثالث : هو ما كان التشابه فيه راجعا إلى اللفظ والمعنى معا وهو خمسة أضرب :

أولها : ما كان التشابه فيه من جهة الكمية ، كالعموم والخصوص مثل قوله تعالى : ﴿ **فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم** ﴾ [1] ، أي من الأرض ، وهذا عام ، والمشهور تخصيصه بتحريم القتال في الحرم بقوله : ﴿ **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم** ﴾ [2].

وثانيها : ما كان التشابه فيه من ناحية الكيفية ، كالوجوب والندب نحو قوله تعالى : ﴿ **فانكحوا ما طاب لكم من النساء** ﴾ [3] .

وثالثها : ما جاء التشابه فيه من جهة الزمان ، كالناسخ والمنسوخ ، مثل قوله تعالى ﴿ **يا أيها الذين أمنوا اتقوا الله حق تقاته** ﴾ [4] إذ قيل إنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فأتقوا الله ما استطعتم** ﴾ [5].

---

(١) سورة التوبة الآية ٥ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩١ .

(٣) سورة النساء الآية ٣ .

(٤) سورة آل عمران الآية ١٠٢ .

(٥) سورة التغابن الآية ١٦ .

ورابعها : ما وقع التشابه فيه من جهة المكان ، والأمور التى نزلت فيها ، نحو قوله تعالى : ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها** ﴾ (١) ، فإن من لا يعرف عادات العرب فى الجاهلية لا يستطيع الوقوف على المعنى المراد ، أخرج البخارى (٢) عن البراء قال : " كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله ﴿ **وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها** ٠٠ ﴾ الآية ٠

ففى الآية نوعان من الخفاء ٠٠

١ ــ خفاء بسبب اللفظ حيث جاء مختصرا وتقديره ، وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها إن كنتم محرمين بالحج أو العمرة ٠

٢ ــ خفاء بسبب المعنى : وذلك أن العبارة ــ لو جاءت كما أسلفنا ــ ما اتضح المراد منها إلا إذا وقف المرء على سبب النزول وهو : عادة العرب التى كانوا عليها آنذاك ٠

وخامسها : ما تطرق إليه التشابه من جهة الشروط التى يصح بها الفعل أو يفسد كشروط الصلاة والنكاح (٣)٠

---

(١) سورة البقرة الآية ١٨٩ ٠

(٢) فى صحيحه كتاب التفسير ٢٤٩/٩ ٠

(٣) المفردات للراغب ص ٢٥٤ ٠

وكما وقع الاختلاف فى معنى كل من المحكم والمتشابه الخاصين وقع الاختلاف فى امكان معرفة المتشابه ، ومنشأ هذا الاختلاف اختلافهم فى هذه الآية الكريمة ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات ، فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ [1].

وذلك من حيث تردد الواو فى قوله تعالى : ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ هل هى للإستئناف و ﴿ **الراسخون فى العلم** ﴾ مبتدأ خبره ﴿ **يقولون** ﴾ وعليه يكون الوقف على قوله ﴿ **وما يعلم تأويله إلا الله** ﴾ ، أو هى معطوف و ﴿ **يقولون** ﴾ حال والوقف على قوله ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ .

فذهب إلى الأول " الإستئناف " طائفة منهم أبى بن كعب وابن مسعود وابن عباس وعائشة ومالك بن أنس والكاسائى والفراء ومن المعتزلة قول أبىْ على الجبائى . قال الفخر الرازى : وهو المختار عندنا [2].

---

(١) سورة آل عمران الآية ٧ .

(٢) التفسير الكبير للفخر الرازى ١٧٦/٧ .

واستدل أصحاب هذا الرأى بما رواه الحاكم فى مستدركه عن ابن عباس أنه كان يقرأ " وما يعلم تأويله إلا الله ويقول الراسخون فى العلم آمنا به " . فإن هذا يدلنا على أن الواو للإستئناف ، لأن هذه الرواية — وإن لم تثبت بها القراءة — فأقل درجتها أن تكون خبرا بإسناد إلى ترجمان القرآن ، فيقدم كلامه فى ذلك على من هو دونه ٠

وبقراءة ابن مسعود " وإن تأويله إلا عند الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به " ٠

وأخرج الحافظ ابن مردوية عن ابن العاصى عن رسول الله ﷺ قال : " إن القرآن لم ينزل ليكذب بعضه بعضا ، فما عرفتم منه فاعملوا به ، وما تشابه فآمنوا به " [١].

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : " تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب** ٠٠ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ **أولوا الألباب** ﴾ قال رسول الله ﷺ : " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذرهم " [٢].

ومن الأدلة العقلية : هو أن ما قبل هذه الآية يدل على أن طلب تأويل المتشابه مذموم ، حيث قال : ﴿ **فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله** ﴾ ولو كان طلب تأويل المتشابه جائزا لما ذم الله تعالى ذلك ٠

---

(١) انظر تفسير الحديث فى الجامع للحافظ السيوطى ٨٧٦/١ ، وتفسير ابن كثير ٨/٢ ٠

(٢) أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ٠

فإن قيل : إن مناط الذم هو بعض المتشابه ، كقيام الساعة — كما فى قوله ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، قل إنما علمها عند ربى** ﴾ [1].

أجيب : إنه تعالى لما قسم الكتاب إلى قسمين محكم ومتشابه ، ودل العقل على صحة هذه القسمة من حيث إنه حمل اللفظ على معناه الراجح هو المحكم ، وحمله على معناه الذى ليس براجح هو المتشابه ، ثم إنه تعالى ذم طريقة من طلب تأويل المتشابه كان تخصيص ذلك ببعض المتشابهات دون البعض تركا للظاهر ، وأنه لا يجوز .

ومن الأدلة : قوله تعالى ﴿ **كل من عند ربنا** ﴾ يعنى أنهم آمنوا بما عرفوه على التفصيل ، وبما لم يعرفوا تفصيله وتأويله ، فلو كانوا عالمين بالتفصيل فى الكل لم يبق لهذا الكلام فائدة [2].

المذهب الثانى : وهو مروى عن الإمام ابن عباس ومجاهد والربيع بن أنس وأكثر المتكلمين [3] الذين عطفوا الراسخين على ما قبل وذهبوا إلى أن الراسخين فى العلم يعلمون المتشابه ، وقد

---

(١) سورة الأعراف الآية ١٨٧ .

(٢) أنظر التفسير الكبير للفخر الرازى ١٧٨/٧ بتصرف .

(٣) أنظر عزو هذا المذهب لهؤلاء فى تفسير الفخر الرازى ١٧٦/٧ وعزوه إلى الشافعية فى روح المعانى للألوسى ٨٤/٣ وإلى الربيع ومحمد بن جعفر بن الزبير والقاسم بن محمد وغيرهم فى تفسير القرطبى ١٣/٤ .

استدلوا لذلك بجملة من الأدلة ما بين منقول ومعقول ويتمثل أبرزها فيما يلي :

أولا : ثبت فى الصحيح ، أن النبى ﷺ دعا لابن عباس ـ رضى الله عنهما بقوله : " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " [1] ولو كان التأويل مما لا يعلمه إلا الله تعالى لما كان للدعاء معنى .

ثانيا : أخرج عبد الله بن حميد عن مجاهد فى قوله ﴿ **والراسخون فى العلم** ﴾ ، قال : " يعلمون تأويله ويقولون آمنا به " [2].

ثالثا : وأخرج ابن أبى حاتم ، عن الضحاك قال : " الراسخون فى العلم يعلمون تأويله ، ولو لم يعلموا تأويله لم يعلموا ناسخه من منسوخه ، ولا حلاله من حرامه ، ولا محكمه من متشابهه [3].

رابعا : احتج أصحاب هذا المذهب بأن الله سبحانه وتعالى مدحهم بالرسوخ فى العلم ، فكيف يمدحهم وهم جهال ! وقد قال ابن عباس : أنا ممن يعلم تأويله ، وقرأ مجاهد هذه الآية وقال : أنا ممن يعلم تأويله حكاه عنه إمام الحرمين أبو المعالى [4].

---

(١) روح المعانى ٣/٨٤ .

(٢) انظر الاتقان ٣/ ١ .

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة .

(٤) أنظر تفسير القرطبى ٤/١٣ .

تلك أدلة نقلية ونتبعها بدليل عقلى تعاضد بـه أصحـاب هـذا المذهب وتتمثل فيما يلى ـ مشفوعة بما عقب به عليها من إجابـة ساقها أصحاب المذهب الأول ـ فنقول : ـ

قالوا إنه يبعد أن يخاطب الله تعالى عباده بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ، قاله الإمام النووى فى شرحه علـى صحيح مسلم ونقله السيوطى فى الإتقان [١] ونقل الزركشى [٢] عن الراغب قوله فى مقدمة تفسيره : " وذهب عامة المتكلمين إلى أن كل القرآن يجب أن يكون معلوما ، وإلا لأدى بطلان فائدة الإنتفاع به " .

وقد أجاب الألوسى [٣] عن ذلك بقولـه : " لا بُعد فـى أن يخاطب الله تعالى بما لا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفته ويكـون ذلك من باب الابتلاء كما ابتلى سـبحانه عبـاده بتكـاليف كثـيرة وعبادات وفيرة لم يعرف أحد حقيقة السر فيها ، والسر فـى هـذا الابتلاء قص جناح العقل ، وكسر سورة الفكـر وإذهـاب عجـب طاووس النفس ليتوجه القلب بشراشره تجاه كعبة العبودية ويخضـع تحت سرادقات الربوبية ويعترف بالقصور ويقـر بـالعجز عـن الوصول إلى ما فى هاتيك القصور وفى ذلك غاية التربية ونهايـة المصلحة " . أ.هـ

---

(١) انظر الإتقان ٥/٣ .

(٢) أنظر البرهان ٧٤/٣ .

(٣) أنظر روح المعانى ٨٦/٣ ـ ٨٧ .

المذهب الثالث : وهو يجمع بين المذهبين السابقين بلا تضـــاد ولا تناقض ، وعليه تحمل جميع الروايات المأثورة عن السلف فـــى التفويض فى علم المتشابه أو الوقوف عليه ، إذ أن مبنى هذا المذهـب : جواز جعل الواو للإستئناف والعطف وذلك بناء على تقسيم المتشابه إلى ثلاثة أنواع :

الأول : ما يستطيع البشر الوصول إلي معرفته عن طريق البحـــث والتقصى والتعمق ، كالمتشابهات الناتجة عن غرابة الألفـاظ ، والإيجاز أو الإطناب فى التراكيب ٠٠ الخ ٠

الثانى : ما يصل إلى معرفته العلمية الراسخون فى العلم ، وذلـــك مثل الأسرار والدقائق التى يستخرجها العلماء من أســـرار إعجاز القرآن الكريم ٠

الثالث : ما لا يستطيع الخلق جميعا الوصول إليه ــ مهما أوتوا من علم ــ لاستثناء المولى ــ عز وجل ــ بعلمه ، مثل وقــت القيامة ، وخروج الدابة التى تكلم الناس ، وطلوع الشـــمس من المغرب ، ومثل المغيبات الخمس التى لا يعلمـــها إلا الله ، قال تعالى : ﴿ **إن الله عنده علم الساعة ويـــنزل الغيــث ويعلم ما فى الأرحام وما تدرى نفس ماذا تكسب غدا ومــا تدرى نفس بأى أرض تموت إن الله عليم خبير** ﴾ [١].

---

(١) سورة لقمان الآية ٣٤ ٠

قال الراغب : " المتشابهات على ثلاثة أضـــرب : ضـــرب لا سبيل إلى الوقوف عليه ، كوقت الساعة وخروج الدابة ونحو ذلك ، وضرب للإنسان سبيل إلى معرفته كالألفاظ الغريبة والأحكام المعلقـة ، وضرب متردد بين الأمرين ، يجوز أن يختص بمعرفة حقيقته بعـــض الراسخين فى العلم ويخفى على من دونهم ، وهو الضرب المشار إليــه بقوله ﷺ لابن عباس : " اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل " .

وإذا عرفت هذه الجهة عرفت أن الوقف على قوله : ﴿ **ومـــا يعلم تأويله إلا الله** ﴾ ووصله بقوله : ﴿ **والراسخون فى العلـــم** ﴾ جائز ، وأن لكل واحد منهما وجـــها حســبما دل عليــه التفصيــل المتقدم " [1] أ . هـ

متشابه الصفات

إن الآيات المشكلة الــــواردة فـــى صفـــات الله تعـــالى كقولــه : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ هى أهم ما يتعلق بهذا الضرب مــن المتشابه الذى لا سبيل لأحد من البشر إلى الوقوف عليه ، لـــذا أفــرده العلماء بالتصنيف ، لكثرة الخوض فيه والتخبط فى مسالكه الشــائكة ــ من الفرق الضالة ــ على غير هدى .

وقد أفرده ابن اللبان بكتاب سماه " رد المتشابهات إلى الآيـــات المحكمات " [2] وتناوله الإمام الزركشى فى نوع مستقل عنون لــــه

(١) أنظر المفردات : ٢٥٥ .

(٢) مناهل العرفان ١٨٢/٢ وابن اللبان هو محمد بن أحمد الأشـــعرى المصـــرى المتوفى سنة ٧٤٩ هـ الأعلام ٨٥٣/٣ .

بـــ " " **النوع السابع والثلاثون : فـــى حكـــم الآيـــات المتشـــابهات الواردة فى الصفات** " [1].

وقد تعددت الآراء والاتجاهات فى متشابه الصفات على ثلاثـــة مذاهب :

المذهب الأول : وهو مذهب أهل السنة من السلف الصـــــالح ، ويسمى مذهب " المفوضة " وهو الإيمان بهذه المتشابهات وتفويـض معرفتها إلى الله تعالى والإمساك عن الخـــوض فيـــها بالتـــأويل ، ويستدلون على مذهبهم هذا بدليلين عقلى ونقلى .

أما الاستدلال العقلى وهـــو : أن تعييـــن المـــراد مـــن هـــذه المتشابهات إنما يجرى على قوانين اللغة واســـتعمالات العـــرب ، وهى لا تفيد إلا الظن ، مع أن صفات الله من العقائد لا يكفى فيـــها الظن ، بل لابد فيها من اليقين ولا سبيل إليـــه ، فلنتوقـــف ولنكـــل التعيين إلى العليم الخبير " [2].

والدليل الثانى نقلى : وهو يتضمن العديـــد مـــن النصـــوص والآثار منها :

أ ــ ما أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة ــ رضـــى الله عنها ــ قالت : " تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **هو الذى أنزل**

---

(١) أنظر البرهان فى علوم القرآن ٧٨/٢ .

(٢) أنظر مناهل العرفان للزرقانى ١٨٣/٢ وأرى أنه اقتبس هذا الاســـتدلال ممـــا ذكره الإمام الفخر الرازى فى تفسيره ــ بإطناب واستيعاب .

عليك الكتاب منه آيات محكمات ﴾ إلى قوله ﴿ **أولوا الألبـــاب** ﴾ قالت : قال رسول الله ﷺ : " فإذا رأيت الذين يتبعون مـــا تشـــابه منه ، فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم " [١] .

ب ــ أخرج ابن مردوية عن السيدة أم سلمة أم المؤمنيـــن رضـــى الله عنها فى قوله : ﴿ **ثم اســـتوى علـــى العـــرش** ﴾ [٢] قـــالت : " الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والإقـــرار بـــه إيمان والجحود به كفر "[٣].

ج ــ وأخرج الدارمى فى مسنده عن سليمان بن يسار : أن رجـــلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عـــن متشـــابه القـــرآن فأرسل إليه عمر ــ وقد أعد له عراجين النخل ــ فقـــال : مـــن أنت ؟ قال : أنا عبد الله صبيغ ، فقال : وأنا عبد الله عمر ، فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه حتى دمى رأسه فقـــال : يا أمير المؤمنين حسبك ، قد ذهب الذى كنت أجد فى رأسى [٤] .

د ــ أخرج ابن مردوية بسنده عن رسول الله ﷺ قال : " إن القرآن لـــم ينزل ليكذب بعضه بعضا فما عرفتم منه فاعملوا ، ومـــا تشـــابه فآمنوا به " [٥] .

---

(١) أخرجه البخارى فى صحيحه كتاب التفسير ٩/٢٧٧ ــ ٢٧٨ فتح البارى .

(٢) صدر الآية الكريمة : ﴿ **إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ســـتة أيام ثم استوى على العرش** ﴾ سورة الأعراف الآية ٥٤ .

(٣) انظر الإتقان ١٣/٣ .

(٤) أنظر الدر المنثور ١٢/٢ .

(٥) أنظر الإتقان ١٣/٣ .

المذهب الثانى : وهو مذهب الخلف من أهل السنة وسمى " مذهب المؤولة " وينسب للإمام أبى حسن الأشعرى وأصحابه كابن برهان وقد نقل أن إمام الحرمين كان يذهب هذا المذهب ثم رجع عنه فقال فى الرسالة النظامية : " الذى نرتضيه دينا ، وندين به عقدا ، اتباع سلف الأمة فإنهم درجوا على ترك التعرض لمعانيها " أ . هـ

ودليل أصحاب هذا المذهب : أن القرآن أمر بالتدبر والفهم ، ولا يتم ذلك إلا بالوصول إلى معانى جميع الألفاظ ولا يجوز ترك بعض الألفاظ مهملا بلا فهم له ، ما دام ذلك ممكنا فى الإطار الشرعى قال تعالى ﴿ **أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** ﴾ (1).

المذهب الثالث : فهو مذهب المتوسطين وهم الذين أخذوا بالمذهب الأول فى أمور وبالمذهب الثانى فى أمور أخرى .

وقد نقل السيوطى هذا المذهب فقال : " وتوسط ابن دقيق العيد فقال : إذا كان التأويل قريبا من لسان العرب لم ينكر ، أو بعيدا توقفنا عنه ، وآمنا بمعناه على الوجه الذى أريد به مع التنزيه . وما كان معناه من هذه الألفاظ ظاهرا مفهوما من تخاطب العرب قلنا به من غير توقف كما فى قوله تعالى : ﴿ **يا حسرتا على ما فرطت فى جنب الله** ﴾ (2) فنحمله على حق الله وما يجب له " أ . هـ (3) .

---

(1) سورة النساء الآية ٨٢ .

(2) سورة الزمر الآية ٥١ .

(3) الإتقان ١٤/٣ .

تمثيل وتوضيح :

فمثلا قوله تعالى : ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ فالجميع من سلف وخلف متفقون على أن ظاهر الاستواء علـــى العــرش ، وهو الجلوس عليه مع التمكن والتحيز مستحيل لأن الأدلة القاطعـــة تنزه الله على أن يشبه خلقه أو يحتاج إلى شئ منه ، ســـواء أكـــان مكانا يحل فيه أم غيره ، وكذلك اتفق السلف والخلف على أن هـــذا الظاهر غير مراد الله قطعا ، لأن الله تعالى نفى عن نفسه المماثلـــة لخلقه ، وأثبت لنفسه الغنى عنهم فقال : ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ فلـــو أراد هذا الظاهر لكان متناقضا .

ثم اختلف السلف والخلف بعد ما تقدم ، فالســـلفيون يـــنزهون المولى تباركت آلاؤه ــ عن ظواهر مثل هذه الآيات : لأنها توهـــم مشابهة الله للمخلوقين لذا لا يخوضون في تأويلها بـــل يفوضـــون تعيين معنى الاستواء إلى الله تعالى ، وهو أعلم بما نسبه إلى نفســـه وأعلم بما يليق به سبحانه .

ويرى الخلف أن يؤولوا ، لأنه يبعد كل البعد أن يخـــاطب الله عباده بما لا يفهمون ، وما دام ميدان اللغة متسعا للتـــأويل وجـــب التأويل ويثبتون لله صفة سمعية لا نعلم على التعيين أو نعلمها علـــى التعيين : فالأشاعرة يؤولون من غير تعيين إن لله صفة ســـمعية لا نعلم المراد منها فيقولون : إن المراد من الآية إثبات أنـــه تعـــالى

متصف بصفة سمعية لا نعلميا على التعيين ، تسمى صفة الاستواء ٠ وطائفة المتأخرين يعينون فيقولون : إن المراد بالاستواء هنا هو الاستيلاء والقهر ، من غير معاناة ولا تكلف ، لأن اللغة تتسع لهذا المعنى ، فيكون معنى النص الكريم : الرحمن استولى على عرش العالم بقدرته ودبره بمشيئته ، وابن دقيق العيد يقول بهذا التأويل إن رآه قريبا ، ويتوقف إن رآه بعيدا ٠

ولا ريب أن منهج السلف " المفوضة " هو المنهج الأمثل ، وذلك لإحجام عظام الأئمة من سلفنا الصالح عن التأويل وتنكيلهم بمن تتبع المتشابه بالسؤال عنه ، ولما علمه أولئك السلف من زيغ قلوب هؤلاء ومن تحذير الكتاب والسنة منهم ، لما أخرجه الشيخان وغيرهما عن السيدة عائشة رضى الله عنها أنها قالت : تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ **هو الذى أنزل عليك الكتاب ٠٠** ﴾ إلى قوله : ﴿ **أولوا الألباب** ﴾ ــ قالت : قال رسول الله ﷺ : " فإذا رأيت الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم ٠

الحكمة من وجود المتشابهات فى القرآن الكريم

لقد أشار القرآن الكريم إلى بعض الحكم والأسرار الكامنة في ورود المحكم والمتشابه في القرآن الكريم في هذه الآية : ﴿ .. **منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله ..** ﴾ .

فتضمن هذا النص حكماً علمية وعملية توسع العلماء في بحثها نورد بعضاً منها فيما يلي : ـ

أولاً : الدلالة على إعجاز القرآن : وذلك أن في ذكر المتشابهات جملة من أمثلة الإيجاز والإطناب والتقديم والتأخير ، والحذف ، والمجاز ، والحقيقة ، ونحو ذلك مما يؤكد أن القرآن قد أعجز أهل الفصاحة .

ثانياً : ابتلاء الإنسان واختباره بتعبده بما لا يعلم معناه من كلام الله تعالى ، يقول الإمام الألوسي ﷺ " والسر في هذا الابتلاء قص جناح العقل ، وكسر سورة الفكر ، وإذهاب عجب طاووس النفس ليتوجه القلب بشراشره تجاه كعبة العبودية ، ويخضع تحت سرادقات الربوبية ، ويعترف بالقصور ، ويقر بالعجز عن الوصول إلى ما فى هاتيك القصور وفي ذلك غاية التربية ونهاية المصلحة [1] .

(١) روح المعانى ٣ /٨٦ ــ ٨٧ .

كذلك نقل السيوطى عن **بعض العارفين قال** : " العقل مبتلى باعتقاد حقية المتشابه كابتلاء البدن بأداء العبادة كالحكيم إذا صنف كتابا أجمل فيه أحيانا، ليكون موضع خضوع المتعلم لأستاذه ، وكالملك يتخذ علامة يجتاز بها من يطلعه على سره .

وقيل : لو لم يبتل العقل الذى هو أشرف البدن ، لاستمر العالم فى أبية العلم على التمرد ، فبذلك يستأنس إلى التذلل بعز العبودية ، والمتشابه هو موضع خضوع العقول لبارئها استسلاما واعترافا بقصورها . وفى ختم الآية بقوله تعالى : ﴿ **وما يذكر إلا أولوا الألباب** ﴾ تعريض بالزائغين ، ومدح للراسخين ، يعنى من لم يتذكر ويتعظ ويخالف هواه ، فليس من أولى العقول ، ومن ثم قال الراسخون : ﴿ **ربنا لا تزغ قلوبنا ..** ﴾ [١] إلى آخر الآية ، فخضعوا لبارئهم لاستنزال العلم اللدنى بعد أن ـ استعاذوا به من الزيغ النفسانى " [٢].

وقال السيوطى : " إن قيل : ما الحكمة فى إنزال المتشابه ممن أراد لعباده به البيان والهدى ؟

قلت : " إن كان مما يمكن علمه فله فوائد :

منها : ابتلاء العباد بالوقوف عنده والتوقف فيه ، والتفويض والتسليم والتعبد بالاشتغال به من جهة التلاوة كالمنسوخ ، وإن لم

---

(١) سورة آل عمران الآية ٨ .

(٢) الإتقان ٣/٩ .

يجز العمل بما فيه وإقامة الحجة عليهم لأنه لما نزل بلسانهم ولغتهم وعجزوا عن الوقوف على معناه مع بلاغتهم وأفهامهم دل على أنه نزل من عند الله . وأنه الذى أعجزهم عن الوقوف على معناه " [١].

ثالثا : ذكر المتشابه فى القرآن : يحمل الإنسان على إعمال العقل بالتدبر والتفكر ، وفى هذا يقول الفخر الرازى : " باشتمال القرآن على المحكم والمتشابه : يضطر الناظر فيه إلى الاستعانة بالأدلة العقلية ، فيتخلص من ظلمة التقليد . وفى ذلك تنويه بشأن العقل والتعويل عليه . ولو كان كله محكما لما احتاج إلى الدلائل العقلية ولظل العقل مهملا " [٢] .

رابعا : ومن الحكمة من وجود المتشابه ما ذكره الإمام الرازى قال : " ومنها أن القرآن مشتمل على دعوة الخواص والعوام ، وطبائع العوام تنفر فى أكثر الأمر عن درك الحقائق ، فمن سمع من العوام فى أول الأمر إثبات موجود ليس بجسم ولا متحيز ولا مشار إليه ، ظن أن هذا عدم ونفى ، فوقع التعطيل ، فكان الأصلح أن يخاطبوا بألفاظ دالة على بعض

---

(١) المرجع السابق ٣/٣١ .

(٢) مناهل العرفان ٢ / ١٨١ .

ما يناسب ما توهموه وتخيلوه ، ويكون ذلك مخلوطا بما يدل على الحق الصريح ، فالقسم الأول وهو الذى يخاطبون به فى أول الأمر يكون من المتشابهات ، والقسم الثانى وهو الذى يكشف لهم فى آخر الأمر من المحكمات " [١].

خامسا : " أنه يوجب المشقة فى الوصول إلى المراد ، وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب " [٢] ، ففى وجود المتشابهات فى القرآن يجعل المسلمين فى محاولات دائبة فى الوصول إلى معانيها وفى تحمل هذا كله سبب فى تحصيل عظيم الأجر ورفعة الدرجات . قال تعالى ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ [٣].

سادسا : ذكر المتشابهات فى القرآن : إظهار لآثار رحمة الله بعباده المكلفين الضعاف .. فلو كشف الله عز وجل عن صفات ذاته أو بين لهم : وقت الساعة لهلكوا من شدة عظمة صفاته التى لم يتحملها الجبل حين تجلى الله له ، وفى بيان وتحديد وقت قيام القيامة ، تشجيع لهم على التكاسل ، والتوبة قبيل قيامها كتوبة فرعون ، لكنه سبحانه أخفى علينا ذلك لنجتهد فى العبادة وليميز الخبيث من الطيب .

---

(١) الإتقان ٣/٣٢ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) سورة آل عمران ١٤٢ .

سابعا : أن فى إيراد المتشابه المستأثر بعلمه : إطماعا لذوى المذاهب المختلفة أن يجد كل منهم فيه ما يؤيد مذهبه ووجهته ، فالجبرى يتمسك بآيات الجبر ، كقوله تعالى : ﴿ **وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرأ** ﴾ (1) ، والقدرى يقول بل هذا مذهب الكفار ، بدليل أنه تعالى حكى ذلك عن الكفار فى معرض الذم لهم فى قوله : ﴿ **وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر** ﴾ (2) وأيضا مثبت الرؤية يتمسك بقوله تعالى ﴿ **وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة** ﴾ (3) والنافى يتمسك بقوله : ﴿ **لا تدركه الأبصار** ﴾ (4) ومثبت الجهة يتمسك بقوله : ﴿ **يخافون ربهم من فوقهم** ﴾ (5) وبقوله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ (6) والنافى يتمسك بقوله ﴿ **ليس كمثله شئ** ﴾ (7).

---

(1) سورة الأنعام الآية ٢٥ .

(2) سورة فصلت الآية ٥ .

(3) سورة القيامة الآية ٢٣ .

(4) سورة الأنعام الآية ١٠٣ .

(5) سورة النحل الآية ٥٠ .

(6) سورة طه الآية ٥ .

(7) سورة الشورى الآية ١١ .

ولولا وقوع التشابه المذكور ، بأن كان التنزيل محكما بالكلية : لما كان مطابقا إلا لمذهب واحد ، ولكان مبطلا لجميع المذاهب المخالفة [١] من ثم كان التشابه فى التنزيل مدعاة لأن يجتهد كل صاحب مذهب فى التأمل فيه ، فإذا بالغوا فى ذلك صارت المحكمات مفسرة للمتشابهات وبهذا يتخلص المبطل عن باطله ويصل إلى الحق ٠

أما بالنسبة لما يتعلق بالبحث والنظر ، وما يختص بمعرفته بعض الراسخين فى العلم ، فما ذكره العلماء من فوائد ما يلى :

أولا : أن القرآن إذا كان مشتملا على المحكم والمتشابه افتقر الناظر فيه إلى الاستعانة بدليل العقل ، وحينئذ يتخلص من ظلمة التقليد ، ويصل إلى ضياء الاستدلال والبينة ، أما لو كان كله محكما لم يفتقر إلى التمسك بالدلائل العقلية فحينئذ كان يبقى فى الجهل والتقليد [٢].

ثانيا : لما كان القرآن مشتملا على المحكم والمتشابه ، اضطر الناظر فيه إلى تحصيل علوم كثيرة من علم اللغة والنحو وعلم أصول الفقه ، ولم يكن الأمر كذلك ما كان يحتاج الإنسان إلى تحصيل هذه العلوم الكثيرة [٣].

---

(١) ذكر الإمام الرازى أصل هذه الحكمة فى تفسيره ١٧١/٧ ، ١٧٢ ، والسيوطى فى الإتقان ٣٢/٣ وما ذكرناه هنا بتصرف ٠

(٢) انظر تفسير الفخر الرازى ١٧٢/٧ ٠

(٣) المرجع السابق نفس الجزء والصفحة ٠

ثالثا : إظهار فضل العالم على الجاهل ، ويستدعيه علمه إلى المزيد فى الطلب فى تحصيله ، والأنفس الشريفة ترتقى لطلب العلم لتصل إلى أوج الفضل • ومن ثم يظهر التفاضل والتفاوت بين العلماء فى معالى الدرجات ، ولو كان القرآن الكريم محكما لا يحتاج إلى نظر وتأويل ، لاستوت منازل الخلق ، ولم يظهر فضل العالم على غيره [1].

رابعا : أنه متى كانت المتشابهات موجودة ، كان الوصول إلى الحق أصعب وأشق وزيادة المشقة توجب مزيد الثواب ، قال الله تعالى : ﴿ **أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين** ﴾ [2].

خامسا : فى وجود المتشابهات : إظهار عجز المخلوق محدود القدرة والعلم وأنه مهما سما ونبغ فإنه لا يصل إلى حقيقة العلم أو غايته قال تعالى : ﴿ **وما أوتيتم من العلم إلا قليلا** ﴾ [3] وأنه لا يملك القدرة الخارقة والعلم المحيط إلا رب كل شئ ومليكه ﴿ **إنما الهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شئ علما** ﴾ [4] ﴿ **ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء** ﴾ [5] .

تلك أبرز الفوائد والحكم فى ورود المحكم والمتشابه فى القرآن الكريم .

---

(١) راجع البرهان ٢/٧٥ ، والإتقان ٣/٣٠ ــ ٣١ .

(٢) سورة آل عمران الآية ١٤٢ وانظر الفائدة فى تفسير الفخر الرازى ٧/١٧٢ .

(٣) سورة الإسراء الآية ٨٥ .

(٤) سورة طه الآية ٩٨ .

(٥) سورة البقرة الآية ٥٥ .

المبحث الرابع
الناسخ والمنسوخ

مقدمة

لقد أرسل الله تعالى رسله لإصلاح الناس فى العقيدة والعبادة والمعاملة ، واتفقت دعوة الرسل جميعا على توحيد الألوهية والربوبية قال تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ (١) ، وقال سبحانه : ﴿ **لقد أرسلنا نوحا إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٢) . وقال هود عليه السلام لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٣) ، وقال صالح عليه السلام لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٤) ، وقال شعيب عليه السلام لقومه : ﴿ **اعبدوا الله ما لكم من إله غيره** ﴾ (٥)، فالتوحيد أول دعوة الرسل .

أما العبادات والمعاملات فإنها تختلف من أمة إلى أخرى ، فما يلائم قوما فى عصر قد لا يلائمهم فى آخر .

وبنزول القرآن الكريم نجوما على قلب الرسول ﷺ وتدرجه حسب الحوادث والوقائع ، وبتعيين السابق والمسبوق .

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٢٥ .

(٢) سورة الأعراف الآية ٥٩ .

(٣) سورة الأعراف الآية ٦٥ .

(٤) سورة الأعراف من الآية ٧٣ .

(٥) سورة الأعراف من الآية ٨٥ .

من الآيات القرآنية عرفنا حكمة الله تعالى فى تربية الخلـــق ، فالخلق خلقه – يمحو ويثبت ما يشاء ويرفع حكما ويبـــدل آخـر ، مراعاة لمصلحة العباد عن علم سابق بالأول والآخر .

وقد أفرده بالتصنيف أعلام منهم أبو عبيد القاسم بـــن ســلاّم ، وأبو داود السجستانى وأبو جعفر النحاس ، وابن الأنبارى ، ومكـــى ، وابن العربى ، وأخرون [١].

أهمية النسخ :

لمعرفة الناسخ والمنسوخ أهمية كبيرة عن أهل العلم من الفقهاء والأصوليين والمفسرين ، فلا يجوز لأحد أن يقدم على تفسير كتـاب الله ، ولا أن يجلس مجلس القضاء والفتيا إلا أن يحيط به خبراً .

" **قال الأئمة** : لا يجوز لأحد أن يفسر كتـــاب الله إلا بعـد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ " [٢] ولذلك وردت آثار كثــيرة فــى الحث على معرفته ، فقد روى أن عليا رضى الله عنه مــرَّ علــى قاضى فقال له : أتعرف الناسخ من المنسوخ ؟ قــال : لا ، قــال : هلكت وأهلكت [٣] يريد أنه عرض نفسه وعرض الناس للهلاك مــا دام أنه لا يعرف النسخ وهكذا نرى تشديد الإمام على فـــى طلــب

---

(١) أنظر الإتقان ٥٩/٣ .

(٢) أنظر الإتقان ٥٩/٣ .

(٣) المرجع السابق .

معرفة الناسخ والمنسوخ لكل من يتصدر القضاء ، يلتقى مع رأى الأئمة بضرورة العلم بالناسخ والمنسوخ لمن يتصدر لتفسير كتاب الله .

وعن ابن عباس أنه قال فى قوله تعالى : ﴿ **ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا** ﴾ [1] فقد فسر الحكمة بمعرفة " ناسخ القرآن ومنسوخه ، ومحكمه ومتشابهه ، ومقدمه ومؤخره ، وحرامه وحلاله " [2].

كما أن الإلمام بالناسخ والمنسوخ يكشف النقاب عن سير التشريع الإسلامى ، ويطلع الناس على حكمة الله فى تربيته للخلق وسياسته للبشر ، وابتلائه للناس ، مما يدل دلالة واضحة ، على أن نفس محمد النبى الأمى لا يمكن أن تكون المصدر لمثل هذا القرآن ، ولا المنبع لمثل هذا التشريع ، إنما هو تنزيل من حكيم حميد .

تعريف النسخ

النسخ فى اللغة : يطلق على عدة معان منها :

١ ـ **الإزالة** : ومنه قوله تعالى : ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله ما يلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته** ﴾ [3] ومنه قولهم " نسخت الشمس الظل " و " نسخت الريح أثر المشى " .

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٦٩ .

(٢) أخرجه ابن جرير عن ابن عباس .

(٣) سورة الحج الآية ٥٢ .

٢ ــ **ويأتى بمعنى التبديل** ، كقوله تعالى : ﴿ **وإذا بدلنا آية مكان آية** ﴾ [١].

٣ ــ **وبمعنى التحويل** ، كتناسخ المواريث بمعنى تحويل الميراث من واحد إلى واحد ٠

٤ ــ **ويأتى أخيرا بمعنى النقل** ٠ ومنه : " نسخت الكتاب " إذا نقلت ما فيه حاكيا للفظه وخطه ٠

وقد أنكر مكىُ [٢] هذا الوجه الأخير وأنكر على النحاس إجازته ذلك " محتجاً بأن الناسخ فيه لا يأتى بلفظ المنسوخ ، وأنه إنما يأتى بلفظ آخر " [٣] ٠

لكن السعدى [٤] احتج لما قاله النحاس بقوله تعالى : ﴿ **إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون** ﴾ [٥] أى إنا كنا نأمر الحفظة أن تكتب أعمالكم عليكم ، قال ابن عباس ﷺ وغيرهما : تكتب الملائكة أعمال العباد ثم تصعد بها إلى السماء فيقابلون الملائكة الذين فى ديوان الأعمال على ما بأيدى الكتبة مما قد أبرز لهم من اللوح المحفوظ فى

---

(١) سورة النحل من الآية ١٠١ ٠

(٢) هو مكى بن أبى طالب حموش بن محمد بن مختار يكنى أبا محمد وأصله من القيروان ٠ له كتاب فى الناسخ والمنسوخ ، سكن قرطبة ورحل إلى مصر مرتين وتوفى سنة ٤٣٧ هـ ٠

(٣) أنظر الإتقان ٥٩/٣ ٠

(٤) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن بركات السعدى له كتاب : " الإيجاز فى معرفة مافى القرآن من منسوخ وناسخ ٠

(٥) سورة الجاثية الآية ٢٩ ٠

كل ليلة قدر مما كتبه الله فى القدم على العباد قبل أن يخلقهم فلا يزيد حرفا ولا ينقص حرفا " [١].

هذا هو معنى النسخ فى اللغة ٠

وأما النسخ فى الاصطلاح [٢] **وهو** : رفع الحكم الشرعى بخطاب شرعى متراخ عنه ومعنى رفع الحكم الشرعى : قطع تعلقه بأفعال المكلفين ٠

والحكم الشرعى : هو خطاب الله المتعلق بأفعال المكلفين إما على سبيل الطلب أو الكف أو التخيير وهذا هو الحكم التكليفى ٠

و " رفع " جنس فى التعريف ، خرج عنه ما ليس برفع كالتخصيص فإنه لا يرفع الحكم وإنما يقصره على بعض أفراده ٠

و " الحكم الشرعى " قيد أول ، خرج به ابتداء ايجاب العبادات فى الشرع ، فإنه يرفع حكم العقل ببراءة الذمة ، وذلك كإيجاب الصلاة فإنه رافع لبراءة ذمة الإنسان منها قبل ورود الشرع بها ، ومع ذلك لا يقال له نسخ ٠

و " بدليل شرعى " قيد ثان ، خرج به رفع حكم شرعى بدليل عقلى ، وذلك كسقوط التكليف عن الإنسان بموته أو جنونه أو غفلته ، فإن سقوط التكليف عنه بأحد هذه الأسباب يدل عليه العقل ٠

كما أن الإضافة فى كلمة " رفع الحكم الشرعى " من قبيل إضافة المصدر لمفعوله ، والفاعل مضمر وهو الله تعالى ، وذلك

(١) تفسير ابن كثير ٣/١٥٤ ــ ١٥٥ ٠

(٢) أنظر مناهل العرفان ٢/٧٥ ٠

يرشد إلى أن الناسخ فى الحقيقة هو الله ، كما يـــدل عليـــه قولـــه سبحانه ﴿ **ما ننسخ من آية أو ننسها** ﴾ ويرشـــد أيضـــا إلـــى أن المنسوخ فى الحقيقة هو الحكم المرتفع ، وقد يطلق الناســـخ علـــى الحكم الرافع فيقال : وجوب صوم رمضان نسخ وجـــوب صـــوم عاشوراء ، وقد يطلق النسخ على دليلــــه كذلـــك ، فيقـــال : آيـــة المواريث نسخت آية الوصية للوالدين والأقربين .

ومن الواضح أن تعريف النســـخ اصطلاحـــا بقولـــهم : " رفـــع الحكم الشـــرعى بدليـــل شـــرعى " أدق تعريـــف اصطلاحـــى لـــهذه اللفظة ، حيث يتناسق فى أن واحد مـــن التعريـــف اللغـــوى الـــذى يـــرى النسخ بمعنى الإزالـــة .

معنى البداء والفرق بينه وبين النسخ

جدير بنا هنا أن نبين معنى البداء والفرق بينه وبين النسخ .

البداء بفتح الباء يطلق فى اللغة على معنيين :

أحدهما : الظهور بعد الخفاء .

الثانى : نشأة رأى جديد .

قال الرازى : " بدا الأمر من باب سما أى : ظهر ، و " بدا " له فى هذا الأمر بداء أى : نشأ له فيه رأى " (١) ، و " يجوز أن يكون غـــير مهموز من البُدو : الظهور ، أى : فى ظاهر الأمر والنظر " (٢) .

---

(١) مختار الصحاح ص ٤٤ .

(٢) لسان العرب ٢٧/١ .

وفى القاموس : بدا بداء وبداءة وبدوا ظهر · وبدى [illegible] ظاهره · وبدا له فى الأمر بدوا وبداءً وبداءةً نشأ له فيه رأى ·

فمن المعنى الأول قوله تعالى : ﴿ **وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون** ﴾ (١) ﴿ **وبدا لهم سيئات ما عملوا** ﴾ (٢) ، وقوله تعالى : ﴿ **وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده** ﴾ (٣).

ومن المعنى الثانى : أى نشأة رأى جديد ، قوله تعالى : ﴿ **ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين** ﴾ (٤) فالمعنيان متقاربان ·

وسواء كان البداء · الظهور بعد الخفاء · أو نشأة رأى جديد لم يكن موجودا فهو مستحيل على الله عز وجل أن يتصف به ·

أما الأول ؛ فلأنه يستدعى سبق الجهل وهو محال ·

والثانى ، لأنه يستدعى جهلا وحدوثا ، وكلاهما على الله مستحيل عقلا ونقلا ·

أما العقل السليم إذا نظر إلى ما أبدع الله سبحانه من دقة هذا الكون ونظامه · ونظام شمسه وقمره وأفلاكه · وليله ونهاره يقر بلا تردد بأن الذى خلقه وأبدعه عالم بكل شئ ، كل ذلك يدلنا على

---

(١) سورة الزمر من الآية ٢٧ ·

(٢) سورة الجاثية من الآية ٣٣ ·

(٣) سورة الممتحنة من الآية ٤ ·

(٤) سورة يوسف الآية ٣٥ ·

أن المعنيين كليهما يستحيلان على الله تعالى لأنه يلزم علـــى كــل منهما سبق الجهل وحدوث العلم ، والجهل والحدوث عليــه تعــالى محالان .

وأما النقل ، فإن الآيات التى تدل على إحاطة علم الله ســبحانه بجميع المعلومات أكثر من أن تذكر . قال تعالى : ﴿ **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو * ويعلم ما فى البر والبحر * وما تســـقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة من ظلمـــات الأرض ولا رطــب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** ﴾ (١) .

وقال سبحانه : ﴿ **والله يعلم ما تحمل من أنثى ومـــا تغيــض الأرحام وما تزداد وكل شئ عنده بمقدار * عالم الغيب والشـــهادة الكبير المتعال** ﴾ (٢) .

وقال جل ذكـــره : ﴿ **ألا يعلـــم مـــن خلـــق وهـــو اللطيـــف الخبير** ﴾ (٣).

من هنا نستطيع أن نقول : " إنه بالنسبة لما تبين من المعنـــى اللغوى لكل من النسخ والبداء لا توجد ملازمة بين النسخ والبداء .

فإذا قلنا : إن النسخ هو الإزالة فليس فى الإزالة ظهور شـــئ بعد خفائه ، وإذا قلنا : إنه النقل فلا شئ فى النقل من ظهور بعـــد

---

(١) سورة الأنعام الآية ٥٩ .

(٢) سورة الرعد الآيتان ٨ ، ٩ .

(٣) سورة الملك الآية ١٤ .

خفاء ، وكذلك ليس فى الإزالة ولا فى النقل نشأة رأى جديد لم يك موجودا من قبل ، إذ أن فى كلا مَعْنَىِ البداء سبق جهل وحدوث علم ، وليس فى النسخ بمعنييه حدوث علم ولا سبق جهل ، والله تعالى أعلم .

شروط النسخ

١ ـ أن يكون الحكم المنسوخ شرعيا .

٢ ـ أن يكون الدليل على ارتفاع الحكم خطابا شرعيا متراخيا عن الخطاب المنسوخ حكمه .

٣ ـ وألا يكون الخطاب المرفوع حكمه مقيدا بوقت معين ، وإلا فالحكم ينتهى بانتهاء وقته ولا يعد هذا نسخا .

٤ ـ أن يكون بين ذينك الدليلين تعارض حقيقى [1].

٥ ـ إنعقاد إجماع الأمة فى أى عصر من عصورها على تعيين المتقدم من النصين أو المتأخر منهما .

٦ ـ أن يرد من طريق صحيحة عن أحد الصحابة ما يفيد تعيين أحد النصين المتعارضين للسبق على الآخر أو التراخى عنه ، كأن يقول : " نزلت هذه الآية بعد تلك الآية وأنزلت هذه الآية قبل تلك الآية " أو يقول : نزلت هذه الآية عام كذا وكان معروفا سبق نزول الآية التى تعارضها أو كان معروفا تأخرها عنها .

(١) مناهل العرفان ٢ /٧٦ .

أما قول الصحابى : هذا ناسخ وذلك منسوخ فلا ينهض دليلا على النسخ لجواز أن يكون الصحابى صادرا فى ذلك عن اجتهاد أخطأ فيه ٠٠ وكذلك لا يعتمد على الآتى :

١ ــ اجتهاد المجتهد من غير سند ؛ لأن اجتهاده ليس بحجة ٠

٢ ــ قول المفسر : هذا ناسخ أو منسوخ من غير دليل ٠

٣ ــ ثبوت أحد النصين قبل الآخر فى المصحف ؛ لأن ترتيب المصحف ليس على ترتيب النزول ٠

نسخ الشرائع بين المؤيدين والمنكرين

مما لا ريب فيه أن الأديان السماوية متفقة فى الأصول مختلفة فى الفروع ، ومن المعلوم أن الله تعالى أرسل إلى الناس رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، ولم يبعثهم الله فى زمن واحد ولا فى منطقة واحدة معينة دون المناطق ، بل جاءوا فى أزمنة مختلفة ومناطق متباينة ، ولكل زمن ظروفه وأحواله الخاصة ، ولكل بيئة وقبيل من الناس ظروفه وطبيعته ، فاستلزم ذلك أن يكون هناك اختلاف فى الشرائع والأحكام حتى توافق البيئة والعصر الذى نزلت فيه ومن أجله ، وإن كانت أصول الإيمان وأصول الشرائع متفقة بينهم وقدراً مشتركا بين الجميع ؛ إيمان بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وصلوات وذكاة وصيام ٠٠ الخ ، وأمر بمكارم الأخلاق ونهى عن رذائلها ٠

ولكن ما وراء ذلك من فروع وأحكام جرى فيه الاختلاف ٠

وبالتأمل فى التشريعات السابقة نجد أن كل رسول كان يـــأتى قومه غالبا بجديد لم يك موجودا فى الرسالة السابقة ، أو كان يغــير أو يعدل حكما موجودا قبله .

ومثال ذلك أن آدم ــ عليه السلام ــ كانت زوجه حــواء تلــد توأمين فى كل بطن ولدا وبنتا . والولد من هذه البطن يتزوج البنت من البطن الأخرى . وهذا أمر اقتضته الظــروف لتكثــير النســل وعمارة الأرض ، فلما كثرت الذرية جاءت الشرائع بعد ذلك مـــن عهد إبراهيم عليه السلام وهى تضييق تلك الدائرة شيئا فشيئا حتـــى كانت الرسالة الخاتمة ، فكان من أحكامها ما ذكره القرآن الكريـــم فى سورة النساء ﴿ **وَلا تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنْ النِّسَاءِ إلا مَا قَدْ سَلَفَ إنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلا حُرِّمَتْ عَلَيْكُــمْ أُمَّــهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَـــاتُ الأُخْــتِ وَأُمَّهَاتُكُمْ اللاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنْ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَــائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمْ اللاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمْ اللاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَــمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلائِلُ أَبْنَائِكُمْ الَّذِينَ مِنْ أَصْلابِكُــمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إلا مَــا قَــدْ سَــلَفَ إنَّ اللَّـــهَ كَــانَ غَفُــورًا رَحِيمًا** ﴾ (١) .

وبذلك تعتبر شريعة النبى محمد ﷺ ناسخة لما قبلها من الشــرائع ، فلا عمل بما فى شريعة سابقة إلا ما وافق الشريعة الخاتمة الخالدة .

---

(١) النساء الآية ٢٢ ــ ٢٣ .

ولا يوجد مسلم ينكر هذه الحقيقة ، أما غيرهم فكلامهم هراء لا سند له ولا دليل ، وسنعرض له فيما يلى :

أراء المنكرين لنسخ شريعة محمد ﷺ لما سبقها والرد عليها :

لا نعلم أحداً من المسلمين أنكر نسخ شريعة نبينا محمد ﷺ لجميع ما سبقها من شرائع إلا ما ادعى على أبى مسلم الأصفهانى[1]، وهذا من التحامل عليه ــ رحمه الله تعالى ــ فإنه إنما أنكر النسخ الجزئى فى الشريعة الإسلامية لا النسخ الكلى • وكلامه منصب على إنكار النسخ فى القرآن على وجه الخصوص •

لم يبق إذن إلا اليهود والنصارى ، وشاركهم فى ذلك فرقة ضالة تزيت بزى المسلمين وليست منهم وهى الرافضة ، ومشاركتهم لليهود والنصارى ليست مشاركة فى الإنكار بل مشاركة فى الضلال ، إذ أنهم لم ينكروا النسخ بل أثبتوه وأسرفوا فى إثباته •

وقد افترق اليهود فى أمر النسخ إلى ثلاثة مذاهب :

المذهب الأول : إن النسخ ممتنع عقلا وسمعا • أى أن العقل يمنعه ، وإذا كان لا يمنعه فإنه لم يقع بالفعل ، ويؤيدهم فى ذلك النصارى جميعاً فى هذا الزمن ، وتشيعوا لهذا الرأى تشيعاً كبيراً

---

(١) هو محمد بن بحر المشهور بأبى مسلم الأصفهانى • معتزلى من كبار المفسرين توفى سنة ٣٧٢ هـ أهم كتبه جامع التأويل فى التفسير •

ظير فى حملاتهم المتكررة على الإسلام وطعنـــهم علـــى الديـــن الإسلامى الحنيف ٠

المذهب الثانى : إن النسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً ، ولكـــن لا يقرون بنسخ شريعة محمد ﷺ لما قبلها من الشرائع ، وقـــالوا : إن شريعة محمد ليست ناسخة لشريعة موســـى ؛ لأن شـــريعة محمـــد خاصة ببنى إسماعيل من العرب على الخصوص ، أمـــا شـــريعة موسى فخاصة ببنى اسرائيل ٠

المذهب الثالث : إن النسخ جائز عقلا ولكنه غير واقع سمعاً (١).

فهذه ثلاثة آراء أو مذاهب يضاف إليها رأى المسلمين وهم فريقان :

فريق يقول : إن النسخ جائز عقلاً وواقع سمعا فـــى الشـــريعة الواحدة وبين الشرائع المختلفة ٠

وفريق يقول : إن النسخ جائز عقلاً وواقع سمعاً بين الشـــرائع المختلفة ، ولكنه غير واقع فى شريعة محمد ﷺ ، وهو رأى أبـــى مسلم ومن نحا نحوه ٠

ويحسن بنا أن نعرض لأدلة الفرق المنكرة للنسخ على أى وجه من وجوهه مشفوعة بالرد عليها ٠

أما الذين يقولون بعدم جواز النسخ عقلاً ويستلزم ذلك بالتـــالى عدم الوقوع شرعاً أو سمعاً ، فيستدلون بأنه لو جاز وقوع النســـخ

---

(١) مناهل العرفان ٢/٩٤ بتصرف ٠

لكان إما لحكمة ظهرت لله كانت خافية عليه من قبل وإمـــا لغـير حكمة • وكلا الأمرين محال على الله تعالى •

أما أولا فلأنه يستلزم البداء والجهل بعواقب الأمور على العليم الخبير •

وأما الثانية فلأنه يستلزم العبث ، وكلا الأمريـن مـن البـداء والعبث مستحيلان على الله بالأدلة العقلية والنقلية ، فما أدى إليـهما يكون محالاً بلا شك •

ويرد عليهم بأن التقسيم ناقص ، إذ ليس قسمين بل ثلاثة أقسـام ، ذلك لأن النسخ إما أن يكون لحكمة ظهرت بعد خفاء ، أو لحكمـة كانت معلومة له من قبل ، أو لغير حكمة • ونحن نقـول بـالأمر الثانى وننكر الأول والأخير كما تنكرونه •

فنسخ الله تعالى لحكم من الأحكام مبنى علـى حكمـة كـانت معلومة لله أزلا ظاهرة لم تخف عليه ولن تخفى أبداً ، غاية الأمـر أن مصالح العباد تتجدد بتجدد الأزمان وتختلـف بـاختلاف الأحـوال والأشخاص ، وأسرار الله لا تتناهى وحكمه لا تنقضى ولا يحيط بها غيره ، فإذا نسخ حكماً بحكم لم يخل هذا الحكم مـن حكمـة فيـها مصلحة جديدة مفيدة للعباد ، وكان فى علم الله تعالى أن وقت هـذا الحكم يجئ عند انتهاء الحكم الأول وانتهاء الحاجة إليه حتى تتحقـق المصلحة المرجوة من ورائه ، وليس فى ذلك استلزام بداء أو عبـث ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً •

وأما الذين يقولون بالجواز عقلاً وعدم الوقـــوع ســمعا وهــم أصحاب المذهب الثالث فإنهم يستدلون بما يأتى :

يقولون : إن التوراة التى أنزلها الله لم تزل محفوظـــة لدينـا منقولة بالتواتر فيما بيننا ، وقد جاء فيها " هذه شريعة مؤبـــدة مـا دامت السموات والأرض " وفيها أيضا " ألزموا يوم السبت " وذلـك يفيد امتناع النسخ وإلا بطل ما عند الله [1].

ونرد عليهم بما يأتى : إن دليلهم هذا يحمل ثلاث دعاوى :

الأولى : أن التوراة محفوظة إلى الآن لم تغير وهـــى منقولـة بالتواتر .

الثانية : أن فيها ذلك النص " هذه شريعة مؤبدة " وذلك النـص " الزموا يوم السبت .. " .

الثالثة : أن نسخ شئ من أحكام التوراة إبطال لما هو عنـد الله تعالى .

أما الدعوى الأولى : فإننا لا نسلم لـــهم زعمـــهم أن التـوراة لازالت محفوظة فى أيديهم إلى اليوم حتى يصح استدلالهم بها . بل ثبت بالأدلة الناصعة أن التوراة الصحيحة فقدت ولم يعد لها وجود [2].

ومن تلك الأدلة : وجود التناقض بين النسخ للتـــوراة . ففـى نسخة التوراة التى بأيدى السامريين تزيد فى عمر الدنيا نحو مـــن

---

(1) مناهل العرفان ٢/ ٩٤ ــ ٩٧ بتصرف .

(2) المصدر السابق ٢/ ٩٨ بتصرف .

ألف سنة على ما جاء فى نسخة العنانيين وأن نسخة النصارى تزيد ألفا وثلاثمائة سنة ٠

ومنها أن نسخ التوراة تحكى عن الله ــ عز وجل ــ وعن أنبيائه وملائكته أموراً ينكرها العقل والشرع ويمجها الطبع السليم مما يستحيل معه أن يكون هذا الكتاب صادرا عن نفس بشرية سوية عاقلة متدينة فضلاً عن الله جل شأنه ٠

ففى التوراة التى بين أيديهم اليوم أن الله تعالى ندم على إرسال الطوفان إلى العالم ، وأنه بكى حتى تورمت عيناه ، وأن يعقوب صارعه ــ جل الله عن ذلك ــ وفيها أن لوطاً شرب الخمر حتى ثمل وزنى بابنتيه وهو لا يدرى ، وهارون هو الذى صنع العجل لبنى اسرائيل ٠٠ الخ هذا التحريف والتخريف [١].

ثم إن التوراة ليست متواترة ــ على فرض أنها محفوظة ــ فالثابت عند المؤرخين ولدى اليهود أنفسهم أن بنى إسرائيل ــ وهم حملة التوراة وحفاظها ــ قد ارتدوا مرات عديدة وعبدوا الأصنام وقتلوا الأنبياء ، ومن كان هذا شأنه لا يعنيه الكتاب الذى عنده ، وثابت أيضاً أن بختصر البابلى قاتلهم وكاد يفنيهم عن آخرهم ، وأخذ البقية الباقية منهم أسرى إلى بابل ــ عاصمة ملكه ــ ولم يدع لهم آثارا ولا أسفاراً ٠ وعادت الكرة عليهم سنة ٧٠ م على يد

---

(١) يراجع سفر التكوين من التوراة ويراجع تفسير المنار للشيخ رشيد رضا ٠

تيطس الرومانى إذ دمر هيكلهم وأحرق معابدهم وأسفارهم وكل غال عندهم .

ولا شك أن هذه المطاعن شنيعة جارحة لا تبقى لأى واحد منهم أى نصيب من عدالة أو ثقة ، كما أنها لو كانت متواترة لحاجوا بها رسول الله ﷺ وعارضوا دعواه وعموم رسالته بما تقوله التوراة التى يؤمن بها ، ولكن ذلك لم يكن مع شدة حرصهم على معارضته وإبطال رسالته .

أما الآية التى استدلوا بها " هذه شريعة مؤبدة ... " والآية الأخرى فيجاب عن ذلك " بأن هذا القول لم يثبت عن موسى بل هو متقول عليه ، وأول من أحدثه ابن الراوندى ليعارض شريعة محمد ﷺ ويقوى عدم صحة هذا النص أن اليهود ـ وهم أحرص الناس على معارضة النبى ﷺ ـ لم يعارضوه مع أن فيه حجة قوية لهم " (١).

يقول الفخر الرازى فى تفسيره : " لنا على اليهود إلزامان ، الأول : جاء فى التوراة أن الله تعالى قال لنوح ـ عليه السلام ـ عند خروجه من الفلك : " إنى جعلت كل دابة مأكلا لك ولذريتك وأطلقت ذلك لكم كنبات العشب ما خلا الدم فلا تأكلوه " . ثم إنه تعالى حرم على موسى وعلى بنى اسرائيل كثيراً من الحيوان .

---

(١) مذكرة الأصول ص ٥٣ بتصرف .

الثانى : كان آدم – عليه السلام – يزوج الأخت من الأخ وقد حرمه بعد ذلك على موسى عليه السلام " [1].

وأما شبهة النصارى فى الموضوع فتتلخص فى أن المسيح – على زعمهم – قال كما جاء فى إنجيل لوقا الآية الثالثة من الباب الحادى والعشرين – : " السماء والأرض تزولان وكلامى لا يزول وهذا يدل على امتناع النسخ " .

ونقول ردا على هؤلاء :

أولا : إن الإنجيل الذى بأيديهم اليوم ليس هو الإنجيل المنزل على عيسى – عليه السلام – وإلا لما اختلف فيه وتناقض ، أو لما تعدد وأضيف إلى مؤلفيه – متى ولوقا ويوحنا ومرقس – فضلاً على أنه قصص تاريخية وليس أحكاماً تشريعية " .

أما الذين قالوا بجواز النسخ عقلا ووقوعه فعلا ، ولكن لا يقرون بنسخ شريعة محمد ﷺ لما قبلها فهم يقولون " لا سبيل إلى إنكار نبوة محمد ، لأن الله أيده بالمعجزات . والتوراة بشرت بمجيئه ، ولكن لا سبيل إلى القول بعموم رسالته ؛ لأن ذلك يؤدى إلى نسخ شريعة إسرائيل ، وشريعة إسرائيل باقية بدليل ما جاء فيها " هذه شريعة مؤبدة .. " وإنما محمد رسول إلى العرب خاصة .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٣/٢٢٧ .

ويرد على هؤلاء الأفاقين بما يأتى :

أولا : إن هذا النص لا دليل فيه ، وقد سبقت الإشارة إليه غير بعيد .

ثانياً : إن اعترافهم برسالة محمد وأنه مؤيد بالمعجزات وجاءت بـه البشارة فى التوراة يقضى عليهم لا محالة أن يصدقوه فـى كل ما جاء به ، ومن بين ذلك أن رسالته عامـة وناسـخة للشرائع السابقة حتى شريعة موسى نفسه الذى قال فيه ﷺ : " ولو كان موسى حيا ما وسـعه إلا أن يتبعنـى " أمـا أن يؤمنوا برسالته ثم لا يصدقونه فى عموم الرسالة والدعـوة فذلك تناقض ﴿ **يجادلونك فى الحق بعد ما تبين** ﴾ (1).

يقول الإمام الشهرستانى : " ومن العجيـب أن مـن رأى غـيره يصدق ما عنده ويكمله ويرقيه من درجة إلى درجة كيف يسـوغ لـه تكذيبه ؟ ! والنسخ فى الحقيقة ليس إبطالاً بل هو تكميل ، وفى التـوراة أحكام عامة وأحكام خاصة إما بأشخاص وإما بأزمان وإذا انتهى الزمان لم يبق ذلك لا محالة ، ولا يقال إنه إبطال أو بداء ، كذلك ما هاهنا " (2).

وبذلك ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن القرآن شريعة الإسـلام ناسخ لما قبله من الشرائع ، ثم هو غير منسوخ كله لأنه الشـريعة الخاتمة . وحامله هو خاتم النبيين فلا نبى بعده ﴿ **ما كان محمـد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين** ﴾ (3).

---

(1) الأنفال من الآية ٦ .

(2) الملل والنحل قسم أول ص ١٩٥ تخريج د . محمد بن فتح الله بدران .

(3) الأحزاب ٤٠ .

النسخ فى الشريعة الإسلامية

النسخ فى الشريعة الإسلامية أمر ممكن وجائز الوقوع عقلا وسمعا ، لأن الله تعالى هو الفاعل المختار والمقتدر الكبير المتعالى فلا يجب عليه شئ ، وله تعالى بناء على ذلك أن يأمر عباده بما يشاء وينهاهم عما يشاء ويبقى من أحكامه ما يريد له أن يبقى وينسخ منها ما يريد نسخه ، ولا يلزم من ذلك عبث ولا ظلم ولا استبداد ؛ لأن جميع أفعاله تعالى لا تخلو عن حكمة بالغة وعلم واسع بما يضر وينفع ، وهو تعالى خالق الخلق ؛ ومن ثم يعلم طبائعهم وما يصلحهم ويفسدهم وما ينفعهم أو يضرهم ﴿ **إن ربك عليم حكيم** ﴾ [1].

ومن المشاهد أن المصالح تختلف باختلاف الأشخاص والأزمان والأحوال فالطبيب يأمر مريضه بتناول دواء عيّنه له ، والامتناع عن أطعمة حددها مادام مريضا ، ثم ينهاه عن ذلك الدواء إذا شفى من مرضه ، ويبيح له أن يأكل ما نهاه عنه من الأطعمة .

وربنا تعالى فعال لما يريد يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة .

وقد اختلف بعض العلماء حول نسخ بعض الآيات فى القرآن الكريم ، فأجازه البعض ومنعه آخرون .

وعلى رأس المانعين أبو مسلم الأصفهانى .

أما الذين أجازوا النسخ فى القرآن الكريم فقد استدلوا على ذلك بما يأتى :

---

(١) سورة يوسف من الآية ٦ .

١ ــ قوله تعالى : ﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ﴾ [١].

٢ ــ قوله : ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب ﴾ [٢].

٣ ــ قوله تعالى ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ [٣]

٤ ــ قوله تعالى : ﴿ فَبِظُلْمٍ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴾ [٤].

قالوا : إن هذه الآية تفيد تحريم ما أحل من قبل ، وذلك نسخ ٠ فكلمة ﴿ أحلت لهم ﴾ تفيد أن الحكم الأول كان حكماً شرعياً لا براءة أصلية ٠

وقالوا فى توجيه الآية الثالثة ــ وهى دليلهم الثالث ــ إن التبديل من رفع الأصل وإثبات البدل ، وذلك هو النسخ سواء كان المرفوع تلاوة أو حكما ٠

والأولى والثانية ظاهرتان لا تحتاجان إلى توجيه ــ فى نظرهم ــ

٥ ــ إن سلف الأمة أجمعوا على أن النسخ وقع فى الشريعة الإسلامية كما وقع بها ٠

٦ ــ إن فى القرآن آيات كثيرة نسخت أحكامها [٥].

---

(١) سورة البقرة الآية ١٠٦ ٠

(٢) سورة الرعد الآية ٣٩ ٠

(٣) سورة النحل الآيتان ١٠١ ــ ١٠٢ ٠

(٤) سورة النساء الآية ١٦٠ ٠

(٥) مناهل العرفان فى علوم القرآن ٢/ ٨٩ ملخصا ٠

قانون التعارض بين النصوص :

ذكرنا فيما سبق أن القائلين بالنسخ قرروا أنه لابد لتحقيق النسخ من ورود دليلين متعارضين لا سبيل إلى الجمع بينهما ، فكان لزاماً أن يكون هناك قانون يضبط هذا التعارض بحيث لا يمكن الجمع بين الدليلين بحال من الأحوال ٠

وهذا القانون يتلخص فيما يلى :

إن النصين إما أن يتفقا فى أنهما قطعيان أو ظنيان ، وإما أن يختلفا ، فالمختلفان لا نسخ بينهما ؛ لأن الظنى يرفض أمام القطعى ولا يقوى على معارضته ٠

وأما المتفقان فإن علم تأخر أحدهما فهو الناسخ للمتقدم ، وإن لم يعرف ولم يكن عليه دليل وجب التوقف ٠

هذا كله إن لم يمكن الجمع بين النصين بوجه من وجوه التأويل وإلا وجب الجمع ، لأن إعمال النصين أولى من إعمال أحدهما وإهمال الآخر ولأن الأصل فى الأحكام بقاؤها وعدم نسخها ، فلا ينبغى أن يترك استصحاب هذا الأصل إلا بدليل بين [١].

وبناء على هذا نوعوا النسخ فى القرآن إلى أنواع ٠

---

(١) مناهل العرفان ٢/١٠١ ملخصا ٠

أنواع النسخ فى القرآن

النسخ فى القرآن الكريم يتنوع إلى أنواع ثلاثة :

الأول : نسخ التلاوة والحكم معا ٠

الثانى : نسخ الحكم مع بقاء التلاوة ٠

الثالث : نسخ التلاوة فقط مع بقاء الحكم معمولا به ٠

النوع الأول : نسخ الحكم والتلاوة معا ٠

فقد أجمع عليه القائلون بالنسخ من المسلمين ، ويدل على وقوعه سمعا ما ورد عن عائشة ــ رضى الله عنها ــ أنها قالت : " كان فيما أنزل من القرآن عشر رضعات معلومات يُحرِّمْنَ ثم نسخن بخمس معلومات ٠ وتوفى رسول الله ﷺ وهن فيما يتلى من القرآن " [1].

ولكن هذا النوع من القرآن الذى يقولون عنه إنه كان موجودا ثم نسخت تلاوته وحكمه لم يستدل عليه القائلون به إلا بهذا الحديث الذى ورد عن السيدة عائشة ــ رضى الله عنها ــ ٠

وقد أنكر بعض العلماء هذا النوع من النسخ ــ وهم على حق فى ذلك ــ قال السيوطى فى الإتقان [2] : " حكى القاضى أبو بكر الباقلانى فى الانتصار عن قوم إنكار هذا الضرب لأن الأخبار فيه

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه ٠ كتاب الرضاع ٢٩/١٠ شرح النووى ٠

(٢) ٧٥/٣ ٠

آحاد ، ولا يجوز القطع على إنزال قرآن ونسخه بأخبار آحاد لا حجة فيها " ٠

أى أنه لإثبات هذا النوع لابد أن يثبت بالتواتر أن ما نسخ كان قرآنا بالفعل ، و أن يثبت أيضا بالتواتر دليل على نسخه فهل هذا الشرط ينطبق على هذه الرواية التى استدلوا بها على وجود هذا النوع من النسخ ؟ كلا ٠

صحيح أنها وردت فى صحيح مسلم ــ رضى الله عنه ــ ومع ذلك فإنها لا تدل على أنه كان هناك قرآنا نسخ حكمه وتلاوته جميعا ٠

يقول الدكتور/ محمد أبو شهبة : " إن هذه الرواية مهما صحت فهى تعارض القطعى الثابت بالتواتر وهو القرآن الذى بين أيدينا اليوم ، وغاية ما تدل عليه هذه الرواية أنها خبر لا قرآن ؛ قال الحافظ ابن حجر فى الفتح ج ٩ ص ١٢٠ فى معرض ذلك ما يقوى مذهب الجمهور القائلين بتحريم القليل من الرضاع والكثير منه ــ قال ــ : " وأيضا فقول عائشة : عشر رضعات معلومات فمات النبى ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن لا ينهض للاحتجاج على الأصح ٠٠ لأن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر ٠ والرواى روى هذا على أنه قرآن لا خبر فلم يثبت كونه قرآنا ولا ذكر الراوى أنه خبر ليقبل قوله فيه ٠ والله أعلم ٠

ثم قال الدكتور محمد أبو شهبة : " ومما يدل على أنه ليس قرآنا وأنه كان تشريعا ثابتا بالسنة ثم نسخ اختلاف الرواية عنها فى القدر المحرم ؛ ففى رواية الموطأ عنها عشر رضعات ، وعنها سبع رضعات كما أخرجه ابن أبى خيثمة بإسناد صحيح عنها ، وعبد الرزاق أيضا ٠

وجاء عنها أيضا خمس رضعات وهى ما يدل عليها رواية مسلم التى معنا ؛ فاختلاف الرواية عنها يدل على أنه كان باجتهاد منها استندت فيه على ما ظهر لها من السنة ، ولو كان قرآنا لما نقل عنها كل هذا الاختلاف ٠

ولذلك قال الإمام مالك بعد رواية الحديث فى الموطأ : " ليس على هذا العمل ، ورفض الحديث ٠ وقال الإمام النووى فى شرحه على مسلم ج ١٠ ص ٣٠ : واعترض أصحاب مالك على الشافعية ــ القائلين أن لا حرمة إلا بالخمس ــ بأن حديث عائشة هذا لا يحتج به عندكم وعند محققى الأصوليين ؛ لأن القرآن لا يثبت بخبر الواحد ، وإذا لم يثبت قرآنا لم يثبت بخبر الواحد عن النبى ﷺ لأن خبر الواحد إذا توجه إليه قادح يوقف عن العمل به ، وهذا إذا لم يجئ إلا بآحاد ، مع أن العادة مجيئة متواترا توجب ريبة ، والله أعلم [1]. ثم إن الرواية تقول : " فتوفى رسول الله ﷺ وهن مما يقرأ من القرآن " فأين هو من القرآن الآن ؟ هل نسخ بعد وفاة النبى ﷺ ؟

---

(١) المدخل إلى دراسة القرآن الكريم ص ٣٠٢ ٠

إن القول بذلك كبيرة ، وقد حاول بعضهم تأويل هذا الكلام كما جاء عن السيوطى [١] : " إن المراد قارب الوفاة ، أو أن المراد أن التلاوة نسخت أيضا ولم يبلغ ذلك كل الناس إلا بعد وفاة الرسول ﷺ فتوفى وبعض الناس يقرأها " وهذا تكلف ظاهر ، وقال السيوطى أيضا : " قال مكى : هذا المثال فيه المنسوخ غير متلو ، والناسخ أيضا غير متلو ، ولا أعلم له نظيرا [٢] أ . هـ ولا أدرى ماذا يقصد بهذه العبارة ؟ هل هو إنكار منه لهذا النوع ؟ أو أنه يقصد أن هذا نوع فريد ولا يوجد له مثال آخر ؟ .. ولكنه حديث صحيح . وإن كان موقوفا على عائشة فإن له حكم المرفوع .

النوع الثانى : نسخ الحكم وبقاء التلاوة :

وهذا النوع هو الذى ألفت فيه الكتب وذكر المؤلفون فيه الآيات المتعددة يقول السيوطى فى الإتقان : " وهو على الحقيقة قليل جداً وإن أكثر الناس من تعداد الآيات فيه فإن المحققين منهم كالقاضى أبى بكر بن العربى بين ذلك وأتقنه ، ثم يقول السيوطى : " والذى أقوله : إن الذى أورده المكثرون أقسام :

قسم ليس من النسخ فى شئ ولا من التخصيص ولا له بهما علاقة بوجه من الوجوه . وذلك مثل قوله تعالى : ﴿ **وممـا**

(١) الإتقان ٣/٦٣ .

(٢) نفس المصدر السابق .

رزقناهم ينفقون ﴾ [1] **﴿ وأنفقوا مما رزقناكم ﴾** [2]ونحو ذلـــك ، قالوا : إنه منسوخ بآية الزكاة ، وليس كذلك بل هـــو بـــاق ، أمـــا الأولى فإنها خبر فى معرض الثناء عليهم بالإنفاق وذلك يصلـــح أن يفسر بالزكاة وبالإنفاق على الأهل ، وبالإنفاق فى الأمور المندوبـــة كالإعانة والإضافة ، وليس فى الآية ما يدل على أنها نفقة واجبـــة غير الزكاة أى حتى تنسخ بالزكاة ، والآية الثانية يصلح حملها على الزكاة وقد فسرت بذلك .

وقسم هو من المخصوص لا المنسوخ ، كقوله تعـــالى : **﴿ إن الإنسان لفى خســـر إلا الذيـــن آمنـــوا ﴾** [3] ، وقولـــه تعـــالى : **﴿ والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم فى كـــل واد يـــهيمون وأنهم يقولون ما لا يفعلون إلا الذين أمنـــوا وعملـــوا الصالحـــات وذكروا الله كثيرا .. ﴾** [4] ، وقوله : **﴿ فاعفوا واصفحوا حتـــى يأتى الله بأمره ﴾** [5] إلى غير ذلك من الآيات التى خصت باستثناء أو غاية ، وقد أخطأ من أدخلها فى المنسوخ .

ذلك أن النسخ هو رفع حكم شرعى متقدم بدليل شرعى متـــأخر وقسم رفع ما كان عليه الأمر فى الجاهلية ، أو فى شرائع من قبلنا ، أو

---

(١) سورة الأنفال الآية ٣ .

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥٤ .

(٣) سورة العصر الآيتان ٢ ، ٣ .

(٤) سورة الشعراء الآيات ٢٢٤ ـ ٢٢٧ .

(٥) سورة البقرة الآية ١٠٩ .

فى أول الإسلام ولم ينزل فى القرآن ، كإبطال نكاح نساء الآباء [١] ، ومشروعية القصاص [٢] والدية [٣] وحصر الطلاق فى الثلاث [٤] " [٥]

ومن أمثلة هذا النوع الثانى من النسخ : هو ما نسخ حكما لا تلاوة : كقوله تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم**

---

(١) كما فى قوله تعالى ﴿ **ولا تنكحوا ما نكح أباؤكم من النساء إلا ما قد سلف** ﴾ الآية من سورة النساء ٠

(٢) كقوله تعالى : ﴿ **يأيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى** ﴾ الآية من سورة البقرة ، وقد صرح ابن سلامة فى " الناسخ والمنسوخ " ص ٤٩ بأن هذه الآية نسخت بعض عادات الجاهلين الذين كانوا لا يرضون أن يقتلوا بالعبد منهم إلا الحر ، وبالمرأة منهم إلا الرجل ، فسوى الله بينهما فى أحكام القصاص ٠

(٣) كقوله تعالى : ﴿ **فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة** ﴾ **الآية** من سورة النساء ٠

(٤) فى قوله تعالى : ﴿ **الطلاق مرتان ، فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان** ﴾ الآية من سورة البقرة ، ومن عجيب أمر المفسرين أنهم جعلوا هذه الآيات ناسخة لما كان عليه الأمر فى الجاهلية وقد رجح المحققون من العلماء إخراج هذا كله من عداد الناسخ ، ووجهوه بأن ذلك لوعد فيه لعد جميع القرآن منه ، إذ كله أو أكثره رافع لما كان عليه الكفار وأهل الكتاب ، وإنما حق الناسخ والمنسوخ أن تكون آية نسخت حكم آية ٠

(٥) أنظر الإتقان ٣/٦٣ ، ٦٤ بتصرف ٠

وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ (1) فإنه ناسخ لقوله ﴿ كما كتب على الذين من قبلكم ﴾ (2) لأن مقتضى ذلك الموافقة فيما كان عليهم ، من تحريم الأكل والوطء بعد النوم .

ومنها آية تقديم الصدقة أمام مناجاة الرسول ﷺ ، وهى قوله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدى نجواكم صدقة ﴾ (3) منسوخة بقوله سبحانه ﴿ أأشفقتم أن تقدموا بين يدى نجواكم صدقات فإذ لم تفعلوا وتاب الله عليكم فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وأطيعوا الله ورسوله ﴾ (4) على معنى أن حكم الآية الأولى منسوخ بحكم الآية الثانية مع بقاء تلاوتهما .

ومنها أن قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين ﴾ (5) منسوخ بقوله سبحانه : ﴿ فمن شهد منكم الشهر فليصمه ﴾ على معنى أن حكم تلك منسوخ بحكم هذه مع بقاء التلاوة فى كلتيهما .

هذا وقد ذكر المؤلفون آيات كثيرة فى هذا النوع من النسخ ، والتحقيق أنها قليلة . فقد حصر السيوطى هذا النوع من المنسوخ

---

(1) سورة البقرة الآية ١٨٧ .

(2) سورة البقرة الآية ١٨٣ .

(3) سورة المجادلة الآية ١٢ .

(4) سورة المجادلة الآية ١٣ .

(5) سورة البقرة الآية ١٨٤ .

فى إحدى وعشرين آية [1] ، على خلاف فى بعضهما ، ثم استثنى منها آيتى الإستئذان والقسمة [2] ، فذكر أن الأصح فيها الإحكام لا النسخ . فصارت الآيات المنسوخة فى نظره لا تزيد على تسع عشرة آية ، ثم ضم إليها قوله تعالى : ﴿ **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ [3] على رأى ابن عباس أنها منسوخة بقوله تعالى : ﴿ **فول وجهك شطر المسجد الحرام ...** ﴾ [4] الآية فتمت عشرون [5].

وقد يقال ما الحكمة فى رفع الحكم وبقاء التلاوة ؟ والجواب من وجهين :

أحدهما : أن القرآن كما يتلى ليعرف الحكم منه ، والعمل به ، فإنه يتلى كذلك لكونه كلام الله تعالى فيثاب عليه ، فتركت التلاوة لهذه الحكمة .

---

(١) أنظر الإتقان ٣/ ٦٥ – ٦٨ فقد ذكر السيوطى هنا جميع هذه الآيات .

(٢) يراد بآية الإستئذان قوله تعالى : ﴿ **ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث عورات** ﴾ وهى آية لا ريب فى إحكامها . أما آية القسمة فهى قوله تعالى ﴿ **وإذا حضر القسمة أولو القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه وقولوا لهم قولا معروفا** ﴾ فقد قيل : إنها منسوخة بآية المواريث والصحيح أنها ليست منسوخة ، وحكمها باق على الندب والترغيب فى فعل الخير .

(٣) سورة البقرة الآية ١١٥ .

(٤) سورة البقرة الآية ١٤٤ .

(٥) الإتقان ٦٨/٣ بتصرف .

وثانيهما : أن النسخ غالبا يكون للتخفيف ، فأبقيت التلاوة تذكيرا بالنعمة فى رفع المشقة ، ومن أمثلة ذلك ما ورد من أن رجلا من الأنصار ، جاء إلى النبى ﷺ عشية ، وقد أجهده الصوم ، فسأله الرسول عن سبب ضعفه فقال : يا رسول الله عملت فى النخل نهارى أجمع ، حتى أمسيت فأتيت أهلى لتطعمنى شيئا ، فأبطأت فنمت فأيقظونى وقد حرم الأكل • أى بسبب النوم •

فلو قارنا هذا التيسير فى الآية الناسخة حيث أبيح الأكل والشرب وغيرهما إلى طلوع الفجر ، فلا يؤثر النوم قبل الفجر فى تحريم الأكل والشرب وغيرهما إلى طلوع الفجر ، ولو قارنا هذا التيسير فى الآية الناسخة بما كان عليه الأمر قبل النسخ ، لرأينا فضل الله علينا عظيماً •

أما النوع الثالث وهو : ما نسخ تلاوته دون حكمه : كآية الرجم :

فقد روى الشيخان عن ابن عباس رضى الله عنهما • أن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد أيها الناس إن الله بعث محمدا بالحق وأنزل عليه الكتاب وكان فيما أنزل عليه آية الرجم قرأناها ووعيناها : الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة •

ورجم رسول الله ﷺ ورجمنا بعده فأخشى أن يطول بالناس زمان أن يقول قائل لا نجد آية الرجم فى كتاب الله فيضلوا بترك

فريضة أنزلها الله قال ذلك على مسمع من علماء الصحابة وأعيانهم من غير أن ينكر عليه أحد فيعد هذا إجماعا .

قال السيوطى فى الإتقان (١) : " وقد أورد بعضهم سؤالا وهو ما الحكمة فى رفع التلاوة مع بقاء الحكم وهلا بقيت التلاوة ليجتمع العمل بحكمها وثواب تلاوتها ؟ وأجاب صاحب الفنون : إن ذلك ليظهر به مقدار طاعة هذه الأمة فى المسارعة للطاعة كما سارع الخليل عليه السلام إلى ذبح ولده بمنام والمنام أدنى طريق الوحى " أ . هـ

وقال الشيخ الزرقانى بعد أن أورد آية الرجم قال : " والسر فى ذلك أنها كانت تتلى أولا لتقرير حكمها ردعا لمن تحدثه نفسه أن يتلطخ بهذا العار الفاحش من شيوخ وشيخات . حتى إذا تقرر هذا الحكم فى النفوس نسخ الله تلاوته لحكمة أخرى هى الإشارة إلى شناعة هذه الفاحشة ، وبشاعة صدورها من شيخ وشيخة حيث سلكها مسلك ما لا يليق أن يذكر فضلا عن أن يفعل ، وسار بها فى طريق يشبه طريق المستحيل الذى لا يقع ، كأنه قال نزهوا الأسماع عن سماعها والألسنة عن ذكرها فضلا عن الفرار منها . ومن التلوث برجسها . " كتب الله لنا الحفظ والعصمة إنه ولى النعمة والتوفيق " آمين أ . هـ

---

(١) ٣/٧٢ .

بعض الآيات المشهورة بنسخها

لقد حصر السيوطى الآيات التى اشتهرت بالنسخ فى القرآن الكريم فى اثنتين وعشرين آية ثم حذف اثنتين فبقيت عشرون آية كما فى الإتقان ، وقد نقلها عن السيوطى المرحوم محمد الزرقانى فى مناهل العرفان [1] ، وها أنا أنقل بعضا منها مشفوعة بالتعليق والتحقيق ، ومبينة ما اتضح نسخه وما هو محكم .

الآية الأولى :

﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ [2].

قيل : إنها منسوخة بقوله سبحانه : **﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾** [3].

ووجه قولهم بالنسخ أن الأولى تفيد التخيير للمصلى ما دامت الأفاق كلها لله وليست له وجهة معينة ، والثانية تحتم جهة بعينها هى الكعبة .

قال الزرقانى : " وقيل إن الآية المذكورة ليست منسوخة وإنما هى محكمة . وهذا ما نرجحه ؛ لأنها نزلت ردا على قول اليهود حين حولت القبلة إلى الكعبة **﴿ ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ﴾** [4].

---

(١) ٢/١١٥ .

(٢)سورة البقرة ١١٥ .

(٣)سورة البقرة ١٤٤ .

(٤)سورة البقرة ١٤٢ .

إذن فهي متأخرة في النزول عن آية التحويل كما قال ابن عباس ، وليس بمعقول أن يكون الناسخ سابقا على المنسوخ .

ثم إن معناها هكذا : إن الآفاق كلها لله ، وليس سبحانه في مكان خاص ، وليس له جهة معينة فيها ، وإذن فله أن يأمر عباده باستقبال ما يشاء من الجهات في الصلاة ، وله أن يحولهم من جهة إلى جهة ، وهذا لا يتعارض ، وأن يأمر الله عباده وجوبا باستقبال الكعبة دون غيرها بعد أن أمرهم باستقبال بيت المقدس ، وحيث لا تعارض فلا نسخ ، ويؤيد ذلك أن جملة ﴿ **ولله المشرق والمغرب** ﴾ وردت بنصها في سياق الآيات النازلة في التحويل إلى الكعبة ﴿ **سيقول السفهاء من الناس ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ [1] " [2].

جاء في تفسر القرطبي [3] عند هذه الآية ما نصه :

القول الرابع : قال ابن زيد : كانت اليهود قد استحسنت صلاة النبي ﷺ إلى بيت المقدس وقالوا : ما اهتدى إلا بنا ، فلما حُول إلى الكعبة قالت اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها ؟ فنزلت : ﴿ **لله المشرق والمغرب** ﴾ .

---

(١)سورة البقرة الآية ١٤٢ .

(٢) مناهل العرفان ١٥٢/٢ .

(٣) تفسير القرطبي ٥٧/٢ .

فوجه النظم على هذا القول : أن اليهود لما أنكروا أمر القبلة بين الله تعالى أن له أن يتعبد عباده بما يشاء ، فإن شاء أمرهم بالتوجه إلى بيت المقدس وإن شاء أمرهم بالتوجه إلى الكعبة ٠٠ ولا يسأل عما يفعل وهم يسألون " ٠

هذا ، ويرى بعض العلماء أن ذلك بخصوص صلاة النافلة سفرا على الدابة فالمصلى على الدابة يتوجه حيث توجهت به دابته ، وبعضهم يحمل الآية الأولى على التوجه فى الدعاء ، إلى غير ذلك مما حملوا عليه الآية ، ولكل سند يؤيده ٠

ففى تفسير القرطبى : قال ابن عمر : نزلت فى المسافر يتنفل حيث توجهت به راحلته : أخرجه مسلم عنه ٠ قال : كان رسول الله ﷺ يصلى وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه ، قال : وفيه نزلت : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ ٠

وأخرج الحاكم عنه قال : أنزلت ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ أن تصلى حيثما توجهت بك راحلتك فى التطوع ٠ وقال : صحيح على شرط مسلم ٠

هذا أصح ما ورد فى الآية إسنادا ، وقد اعتمده جماعة ، ولكنه ليس فيه تصريح بذكر سبب النزول ، وقد ورد التصريح بسبب نزولها فى الرواية الآتية ٠

أخرج ابن جرير وابن أبى حاتم من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ **لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن**

يستقبل بيت المقدس ، ففرحت اليهود ، فاستقبلها بضعة عشر شـــهرا ، وكان يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو الله وينظر إلى السماء فـــأنزل الله ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ فارتاب فى ذلك اليهود وقالوا : مـا ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأنزل الله : ﴿ **قل لله المشـرق والمغرب** ﴾ وقال : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ إسناده قـوى . والمعنى أيضا يساعده فليعتمد [١] واختار الأستاذ سيد قطب [٢] هـذا الوجه فقال : " إنها جاءت ردا على تضليل اليهود فى ادعائـــهم أن صلاة المسلمين إذن إلى بيت المقدس كانت باطلـــة وضائعـة ولا حساب لها عند الله ! والآية ترد عليهم هذا الزعم ، وهى تقـــرر أن كل اتجاه قبلة ، فثم وجه الله حيثما توجه إليه عابده وإنما تخصيـص قبلة معينة هو توجيه من عند الله فيه طاعـــة ، لا أن وجـــه الله ــ سبحانه وتعالى ــ فى جهة دون جهة ، والله لا يضيق على عبـــاده ولا ينقصهم ثوابه ، وهو عليم بقلوبهم ونياتهم ودوافع اتجاهاتـــهم ، وفى الأمر سعة ﴿ **إن الله واسع عليم** ﴾ .

وبناء عليه فإنه ما دام هناك محمل وجيه تحمل عليه الآية فـــلا داعى للقول بنسخها وتعطيل حكمها ، فالآية محكمـــة لا منســوخة والله أعلم .

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطى ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) فى ظلال القرآن ١/١٠٥ .

الآية الثانية :

﴿ **كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت أن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين** ﴾ (١) .

فإذا كان كتب بمعنى فرض كما قال السجستانى فى غريب القرآن وغيره ، قال الطبرى فى تفسيره (٢) كتب بمعنى فرض كقوله تعالى ﴿ **كتب عليكم الصيام** ﴾ أى فرض عليكم . فيكون معنى الآية أن الوصية للوالدين والأقربين فرض مكتوب وحق واجب على من حضرهم الموت من المسلمين .

وقد نسخ هذا الوجوب . وهذا ما عليه أكثر المحققين .

قال : أبو عبد الله بن حزم (٣) هذه الآية منسوخة وناسخها قول الله تعالى ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم للذكر مثل حظ الأنثيين** ﴾ (٤) وقيل : نسخت بالكتاب والسنة . فالكتاب قوله تعالى : ﴿ **يوصيكم الله فى أولادكم** ﴾ الآية . وأما السنة فقول رسول الله ﷺ " لا وصية لوارث " (٥) وقيل نسخت بالاجماع ، حكاه أبو بكر بن العربى .

---

(١) سورة البقرة ١٨٠ .

(٢) تفسير الطبرى ٣٨٤/٣ .

(٣)الناسخ والمنسوخ لابن حزم على هامش الجلالين ١٦١/٢ .

(٤) سورة النساء الآية ١١ .

(٥) الحديث رواه الترمذى والنسائى .

وقال ابن كثير : " اشتملت هذه الآية على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث ، فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلها حتماً من غير وصية ،

ولهذا جاء في الحديث الذى في السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال : سمعت رسول الله ﷺ يخطب ويقول : " إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث " ،

وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم عن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى إلى هذه الآية : ﴿ **إن ترك خيرا الوصية للوالدين والأقربين** ﴾ فقال نسخت هذه الآية ،

وأخرج ابن أبى حاتم عن ابن عباس في قوله ﴿ **الوصية للوالدين والأقربين** ﴾ نسختها هذه الآية ﴿ **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون والنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيباً مفروضا** ﴾ [(١)] " [(٢)].

وبعد هذا يظهر لنا أن الآية منسوخة كما عليه الجمهور وأن ناسخها آية المواريث ، وقد جاء ذكر الوالدين في الآية ، نعم إن

---

(١)سورة النساء الآية ٧ ،

(٢) تفسير ابن كثير ٢٠٠/١ ،

التعارض بين الآيتين فيه شئ من الخفاء والحديث يجلى هذا الخفاء ويبين النسخ ، والسنة هى المبينة للقرآن ٠

أخرج النسائى والترمذى عن عمرو بن خارجة قال كنت آخذا بزمام النبى ﷺ وهو يخطب فسمعته يقول : " إن الله أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث " فهذا قول من أقوال الرسول ﷺ المبلغ للقرآن يحكى أن الآية نسخت ٠ وقد أجمعت الأمة على أن الحكم المقرر هو ما فى آية المواريث فهذا الاجماع دليل على صحة الحديث ٠ يمكن الاعتماد عليه لأن الاجماع يجبر ما طرأ على السنة من نقلها آحادا فهو قطعى الثبوت بهذا الاعتبار يدل على أن الحكم المفروض هو ما فى آية المواريث " أن الله أعطى كل ذى حق حقه " ٠

والظاهر من سياق آية الوصية أنها كانت واجبة وقد رفع هذا الوجوب وأجمعت الأمة على أنه رفع وذلك هو النسخ ٠ بل منهى عنه بالحديث المتقدم لأن الوصية لبعض الورثة توغر الصدور وتفتت الجماعة ٠ وتقضى على الألفة والمحبة وتؤول إلى قطيعة الرحم فمثلها كمثل الهبة للبعض فى حال الحياة فإنها حرام ٠ أخرج الإمام مسلم فى صحيحه [١] عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما

---

(١) صحيح الإمام مسلم بشرح النووى ٦٥/١١ باب كراهة تفضيل بعض الأولاد فى الهبة ، قال النووى فى شرح الحديث فمذهب الشافعى ومالك وأبى حنيفة أن هذه الهبة مكروهة وقال طاووس وعروة ومجاهد والثورى وأحمد وإسحاق وداود هى حرام ٠ واحتجوا برواية لا أشهد على جور ٠ أ ٠ هـ

أن أباه أتى به رسول الله ﷺ فقال : " أنى نحلت ابنى هذا غلامـا كان لى ، فقال رسول الله ﷺ : " أكل ولدك نحلته مثل هذا ؟ فقال : لا فقال رسول الله ﷺ : فارجعه • وفى رواية قال : فاردده • وفى رواية قال : اتقوا الله واعدلوا فى أولادكم • وفى أخرى لا تشهدنى إذا فإنى لا أشهد على جور • وفى أخرى قـال ﷺ : أيسـرك أن يكونوا إليك فى البر سواء ؟ قال بلى ، قال فلا إذا •

وقال الخازن فى تفسيره [1] : " كانت الوصيـة فـى ابتـداء الإسلام فريضة للوالدين والأقربين على من مات وله مال • وسبب ذلك أن اهل الجاهلية كانوا يوصون للأبعدين طلبا للفخر والشـرف والرياء ويتركون الأقربين فقراء فأوجب الله تعالى الوصية للأقربين ثم نسخت بآية المواريث أ • هـ

وقال الزرقانى [2] : " قيل إنها ــ أى الآية ــ محكمة لم تنسـخ ثم اختلف هؤلاء القائلون بالإحكام : فبعضهم يحملها على من حـرم الإرث من الأقربين ، وبعضهم يحملها على من له ظروف تقضـى بزيادة العطف عليه كالعجزة وكثيرى العيال من الورثة •

ثم قال : ورأيى أن الحق مع الجمهور ــ يعنى أنها منسوخة ــ أما القول بإحكامها فتكلف ومشى فى غير سبيل ؛ لأن الوالديـن ــ

(١) تفسير الخازن ٢/١١١ •

(٢) مناهل العرفان ٢/١٥٣ •

وقد جاء ذكرهما فى الآية ـ لا يحرمان من الميراث بحال ، ثم إن أدلة السنة متوافرة على عدم جواز الوصية لوارث " أ٠هـ ٠

فإذا كان كذلك لم يكن لأحد أن يزعم بأنها محكمة إلا بحجة يجب التسليم إليها ، ولا حجة قوية هنا إذن فالآية منسوخة ، والله أعلم ٠

الآية الثالثة :

﴿ يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون ﴾ (١).

زعم بعضهم أن هذا التشبيه يقتضى موافقة السابقين فى الصيام من جميع الوجوه ٠

قالوا : إن هذا التشبيه يقتضى موافقة من قبلنا فيما كانوا عليه من تحريم الوطء والأكل بعد النوم ليلة الصوم ، وقد نسخ ذلك بقوله سبحانه : **﴿ أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نساءكم ٠٠ ﴾** (٢).

وهذه غفلة لا شك فيها فإن تشبيه الشئ بالشئ لا يقتضى الاستواء فى كل الأمور ، وإنما يكفى أن يكون هناك وجه شبه يجمع بين المشبه والمشبه به ٠ فلو قلنا لأحدهم : إنك كالأسد ، وقصدنا استواءه بالأسد فى كل الأمور لغضب من هذا التشبيه ؛ لأنه يقتضى أن يكون كالأسد يمشى على أربع وله مخالب وأنياب

---

(١) سورة البقرة ١٨٣ ٠

(٢) سورة البقرة ١٨٧ ٠

حادة وله ذيل وفى فمه بخر .. إلخ أوصاف الأسد ، لكن التشبيه بالأسد فى الحقيقة لا يقصد به إلا وجه واحد وهو الشجاعة والإقدام .

والمقصود بالآية هنا التشبيه فى الفريضة فحسب ، أى إن الصيام فرضناه عليكم ولستم بدعا فى ذلك ، فقد فرضناه على من كان من قبلكم . جاء فى أحكام القرآن لابن العربى : " وجه التشبيه فيه محتمل لثلاثة أوجه : الزمان والقدر والوصف .. " ثم قال : " والمقطوع به أن التشبيه فى الفرضية خاصة ... " [١].

وقال الزرقانى بعد أن نقل كلام القائلين بنسخ الآية : " كذلك قالوا ولكنك تعلم أن التشبيه لا يجب أن يكون من كل وجه ... " [٢] .

وفات هؤلاء أيضا أن هناك وجوها للتشبيه غير التى ساقوها كعدة الأيام وتحديد الزمن الذى تقع فيه الأيام هل الأيام أربعون أو خمسون أو ثلاثون ؟ وهل هى فى رمضان أم فى غيره من المشهور ؟ إلى غير ذلك ، علما بأن كل هذا غير معلوم لنا على الحقيقة ولم يبينه قرآن ولا سنة صحيحة ولسنا مكلفين بعلم ذلك ولا العمل به .

ونسى هؤلاء لما تكلموا عن نسخ السنة بالقرآن ذكروا أن من ذلك أن الأكل والشرب والمباشرة كان محرما فى ليل رمضان على من صام ثم نسخ هذا التحريم بقوله تعالى : ﴿ **فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب**

---

(١) أحكام القرآن لابن العربى ٧٤/١ ، ٧٥ ط دار المعرفة .

(٢) مناهل العرفان ١٥٥/٢ .

الله لكم وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل ﴾ [1].

فجعلوا المنسوخ سنة لا قرآنا ٠

ونخرج من هذا إلى أن الآية محكمة لا نسخ فيها ، والقول بنسخها تهافت لا دليل عليه ٠

أما قوله تعالى : ﴿ **أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ٠٠** ﴾ ناسخ لفعلهم الذى كانوا يفعلونه ، أى لأن فعلهم لم يكن ثابتا بقرآن ، بل كان ثابتا بفعلهم وما كان ثابتا بالأصل ثم يغير بالدليل لا يكون نسخا ، لأن النسخ رفع حكم شرعى ثابت بدليل شرعى متقدم بدليل شرعى متأخر ٠ والله أعلم ٠

الآية الرابعة :

قوله تعالى : ﴿ وعلى الذين يطيقون فدية طعام مسكين ﴾ [2].

قال ابن حزم [3] : " قوله تعالى ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ هذه الآية نصفها منسوخ وناسخها قوله تعالى : ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ يعنى فمن شهد منكم الشهر بالغاً حاضراً صحيحاً عاقلاً فليصمه ٠ أ ٠ هـ

---

(١) سورة البقرة ١٨٧ ٠

(٢) سورة البقرة من الآية ١٨٤ ٠

(٣) الناسخ والمنسوخ لابن حزم ١٦٢/٢ الجلالين ٠

وقال هبة الله بن سلامة [١] كان الرجل فى بدء الإسلام إن شاء صام وإن شاء أفطر مسكينا حتى أنزل الله الآية التى تليها ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ وهذا الظاهر يحتاج إلى كشف ، ومعناه والله أعلم فمن شهد منكم الشهر حاضراً عاقلاً بالغاً صحيحاً فليصمه فصار هذا ناسخاً لقوله تعالى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ الآية ،

وقال الإمام الألوسى فى روح المعانى [٢] كان فى بدء الإسلام لما إن فرض الله عليهم الصوم وما كانوا متعودين له فاشتد عليهم فرخص لهم فى الإفطار والفدية ، أ ، هـ

أقول : إذا نظرنا إلى الآية الأولى نجدها تفيد التخيير بين الصيام وبين الافطار والفدية للمطيقين ، أما الآية الثانية فإنها توجب الصيام دون التخيير على كل مسلم صحيح مقيم بدلالة بقية الآية ، فالتعارض بين الآيتين ظاهر وقد تضافر النقل أن التخيير عمل به بعد نزول الآية الأولى وقبل الثانية ، فيجب أن يصار إلى النسخ خروجاً من التناقض فى كتاب الله عز وجل والله أعلم ،

وما قيل من أن " لا " النافية مقدرة فى الكلام ، والمعنى : وعلى الذين لا يطيقونه لمرض أو كبر أو نحو ذلك ، فإنه غير مقبول ، لأن التقدير خلاف الأصل فإنه يحتاج إلى دليل ولا دليل

---

(١) الناسخ والمنسوخ ١٨ ــ ١٩ ،

(٢) روح المعانى ١/ ٣٦٩ ،

هنا . وطالما أن النقل صح فالنسخ ظاهر قال أبو جعفر النحاس في كتابه قال السدى : ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ كان الرجل يصوم من رمضان ثم يعرض له العطش . فأطلق له الفطر . وكذا الشيخ والمرضع ، ويطعمون عن كل يوم مسكينا فمن تطوع خيرا فأطعم مسكينين فهو خير له .

ونقل أبو جعفر قول القائلين بالإحكام ثم قال : " الصواب أن يقال : الآية منسوخة بقول الله عز وجل ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ .

وأخرج البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى عن سلمة بن الأكوع رضى الله تعالى عنه قال لما نزلت هذه الآية ﴿ **وعلى الذين يطيقونه** ﴾ كان من شاء منا صام ومن شاء افطر ويفتدى فعل ذلك . حتى نزلت الآية بعدها فنسختها ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ وقال أبو جعفر النحاس [1] حدثنا على بن الحسين عن الحسن عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : فى قوله تعالى ﴿ **وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين** ﴾ قال : كان الرجل يصبح صائما والمرأة فى شهر رمضان . ثم إن شاء أفطر وأطعم مسكينا . فنسختها ﴿ **فمن شهد منكم الشهر فليصمه** ﴾ أ.هـ

والمدقق فى تمام الآية وهى قوله تعالى ﴿ **وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ يقطع يقينا ان معناه وصيامكن خير لكم من الافطار

---

(١) الناسخ والمنسوخ لأبى جعفر النحاس ص ٢٢ وما بعدها .

ودفع الفدية . ولا يستقيم ذلك إلا مع التخيير بين الصيام وبين الافطار ودفع الفدية لمطيق الصوم . وقد انعقد الاجماع بعدُ على عدم التخيير للمطيق ما لم يكن معذورا . فلا مفر من القول بالنسخ . والله أعلم .

الآية الخامسة :

﴿ يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير ﴾ (١) .

قالوا : إن هذه الآية منسوخة ، ثم اختلفوا فى ناسخها فقال بعضهم منسوخة بقول الله تعالى **﴿ وقاتلوا المشركين كافة كما يقتلونكم كافة ﴾** (٢) .

ووجهوا ذلك بأن الآية الأولى أفادت حرمة القتال فى الشهر الحرام ، والثانية أفادت الإذن بقتال المشركين عموما . والعموم فى الأشخاص يستلزم العموم فى الأزمان .

أما وجه الملازمة بين عموم الأشخاص وعموم الأزمان فلم يأتوا عليه بدليل غاية الأمر أنهم أيدوا ذلك بأن النبى ﷺ قاتل غطفان بحنين وثقيفا بالطائف فى شوال وذى القعدة سنة ٨ للهجرة . وذو القعدة من الأشهر الحرم .

وقال آخرون : إن النسخ إنما هو بقول الله تعالى : **﴿ فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم ﴾** (٣) .

---

(١) سورة البقرة ٢١٧ .

(٢) سورة التوبة ٣٦ .

(٣) التوبة الآية ٥ .

قالوا فى توجيه هذا الرأى : إن عموم الأمكنة يستلزم عمـــوم الأزمنة ... ولم يعطوا دليلا للملازمة أيضا .

قال الزرقانى : " ذلك رأى الجمهور ، وهو محجوج ـ فيمـــا نفهم ـ بما ذهب إليه عطاء ، وغيره من أن عموم الأشخاص فـــى الآية الأولى وعموم الأمكنة فى الآية الثانية لا يستلزم واحد منـــهما عموم الأزمنة ، وإذن فلا تعارض ولا نسخ ، بل الآية الأولى نبهت على العموم فى الأشخاص ، والثانية نبهت على العموم فى الأمكنـــة ، وكلاهما غير مناف لحرمة القتال فى الشهر الحـــرام ؛ لأن عمـــوم الأشخاص وعموم الأمكنة يتحققان فى بعض الأزمان الصادق بمـــا عدا الأشهر الحرم ، ويؤيد ذلك أن حرمة القتال فى الشهر الحـــرام لا تزال باقية ، اللهم إلا إذا كان جزاء لما هو أشد منه فإنه يجـــوز حينئذ لهذا العارض كما دل عليه قوله تعالى فـــى الآيـــة نفســـها : **﴿ وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ﴾** (١) " (٢)

جاء فى تفسير القرطبى (٣) قوله وكان عطاء يقـــول : الآيـــة محكمة ولا يجوز القتال فى الأشهر الحرم ويحلف على ذلـــك ؛ لأن الآيات التى وردت بعدها عامة فى الأزمنة وهذا خـــاص ، والعـــام

---

(١) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

(٢) مناهل العرفان ٢/١٥٦ .

(٣) تفسير القرطبى ٣/ ٣١ .

لا ينسخ الخاص باتفاق ... وروى أبو الزبير عن جابر قال : " كان النبى ﷺ لا يقاتل فى الشهر الحرام إلا أن يغزى " ومثل هذا جاء فى الفخر الرازى [1].

الآية السادسة :

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنْفُسِهِنَّ مِنْ مَعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [2].

ذهبت جماعة من المفسرين إلى أن هذه الآية منسوخة بقوله تعالى : **﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا ﴾** [3].

قالوا إن الآية الأولى أفادت أن من يتوفى عنها زوجها يوصى لها بنفقة سنة والسكن مدة حول ما لم تخرج ، فإن خرجت فلا شئ لها . وأما الآية الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشرا ، ولازم هذا أنه يجوز لها أن تخرج بعد هذه المدة أو تتزوج .

قال ابن سلامة [4] كان الرجل إذا مات عن امرأة أنفق عليها من ماله حولا وهى فى عدته مالم تخرج . فإن خرجت انقطعت

---

(١) تفسير الفخر الرازى ٢٥/٦ .

(٢) سورة البقرة ٢٤٠ .

(٣) سورة البقرة ٢٣٤ .

(٤) الناسخ والمنسوخ لابن سلامة ص ٢٦ .

العدة ولا شئ لها فنسخ الله تعالى ذلك بالآية التى قبلها . وهى قوله تعالى : ﴿ **والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بانفسهن أربعة أشهر وعشرا** ﴾ فصارت الأربعة أشهر وعشر ناسخة للحول أ . هـ

وبالنظر لهذا التوجيه نجد أنه لا تعارض ؛ فالأولى تتحدث عن نفقة وسكنى مدة حول مالم تخرج ، فإن أرادت الخروج أو الزواج قيدتها الآية الثانية ومنعتها من الخروج أو الزواج قبل مضى أربعة أشهر وعشرة أيام .

فالآية الأولى وإن جعلت للمتوفى عنها زوجها حق الخروج أو الزواج فى أى زمن فإن الثانية قيدت ذلك الإطلاق بعدم جوازه قبل أربعة أشهر وعشرة أيام ، فإذا انتظرت هذه المدة فلها السكنى والنفقة أيضا بقية الحول مالم تخرج أو تتزوج فالآيتان من قبيل تقييد المطلق ، والتقييد ليس بنسخ .

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى فإن المتفحص المدقق فى الآيتين يجد فارقا ظاهرا فى التعبير يؤذن بفارق فى المعنى كبير .

فالأولى تقول : ﴿ **وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج** ﴾ .

والثانية تقول ﴿ **يتربصن** ﴾ ، والتربص : هو الانتظار ، والمقصود به عدة المرأة المتوفى عنها زوجها إن لم تكن حاملا .

فالآية الأولى تفيد بأنه يجب على الذين يتوفون أن يوصوا قبل الاحتضار لأزواجهم بنفقة سنة وبسكنى مدة حول ٠

والمعنى : والله أعلم ٠ يجب عليهم أن يوصوا وصية أو عليهم وصية ٠ و" متاعا " أى متعوهن متاعا ، أو جعل الله لهن ذلك متاعا ٠ والمتاع هنا نفقة سنة لطعام المتوفى عنها وكسوتها وما تحتاج إليه ٠ وقوله تعالى : ﴿ **غير إخراج** ﴾ يفيد وجوب السكنى لهن فى بيوت أزواجهن ٠ ولكنها لا تفيد تربصهن عن الزواج سنة ٠ بل تبيح لهن أن يخرجن قبل السنة ويتعرضن للنكاح كما يشير إلى ذلك قوله تعالى ﴿ **فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف** ﴾ فيدل أن مقامها فى بيت زوجها حولا غير واجب عليها ٠

وأما الآية الثانية فقد أفادت وجوب انتظارها أربعة أشهر وعشرا ٠ ولازم هذا أنه لا يجوز لها ان تخرج فى هذه المدة أو تتزوج ٠

والناظر فى الآيتين يراهما مختلفتى الموضوع ٠ فالآية الأولى تبين حقا للمتوفى عنهن ٠ وهذا الحق متاعا إلى الحول غير إخراج ٠

والآية الثانية تبين واجبا عليهن أن يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشرا لا يتزوجن فى أثنائها ٠ فالحق لا ينافى الواجب فلا تنافى بين الحكمين ولا تناقض حتى نلجأ للنسخ ٠

أما فى كفارة اليمين فقد جاء الصوم مطلقا دون تقييد بالتتابع أو التفريق ، قال تعالى ﴿ **فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام** ﴾ (١) أيضا أطلقه فى قضاء رمضان قال تعالى : ﴿ **فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر** ﴾ (٢) . فالمطلق فى هذا لا يحمل على المقيد . لأن القيد مختلف فحمل المطلق على أحدهما ترجيح بلا مرجح .

٤ ـ أن يختلف السبب ويختلف الحكم : كاليد فى الوضوء والسرقة قيدت فى الوضوء إلى المرافق ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق** ﴾ (٣) . وأطلقت فى السرقة قال تعالى : ﴿ **والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما** ﴾ (٤) فلا يحمل المطلق على المقيد إذا اختلف السبب والحكم .

قال الزركشى (٥) : إن وجد دليل على تقييد المطلق صير إليه . وإلا فلا ، والمطلق على إطلاقه ، والمقيد على تقييده ، لأن الله خاطبنا بلغة العرب والضابط أن الله تعالى إذا حكم فى شئ بصفة أو شرط ثم ورد حكم آخر مطلقا نظر ، فإن لم يكن له أصل يرد

---

(١) سورة المائدة الآية ٨٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٨٤ .

(٣) سورة المائدة الآية ٦ .

(٤) سورة المائدة الآية ٣٨ .

(٥) البرهان فى علوم القرآن [illegible]

إليه إلا ذلك الحكم المقيد وجب تقييده به ، وإن كان له أصل غـيره لم يكن رده إلى أحدهما بأولى من الآخر أ . هـ

وبعد فهذا ما يسره الله لى وأعاننى عليه والله سبحانه وتعـالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصا لوجهه ، وأن ينفعنـى بـه فـى دنياى وآخرتى ، وأن يحقق لى به ما تصبو إليه نفسى .. والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، وصلـى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يـوم الدين .

د / عفاف النجار